روایات الحبیب

فرنکنسٹائن

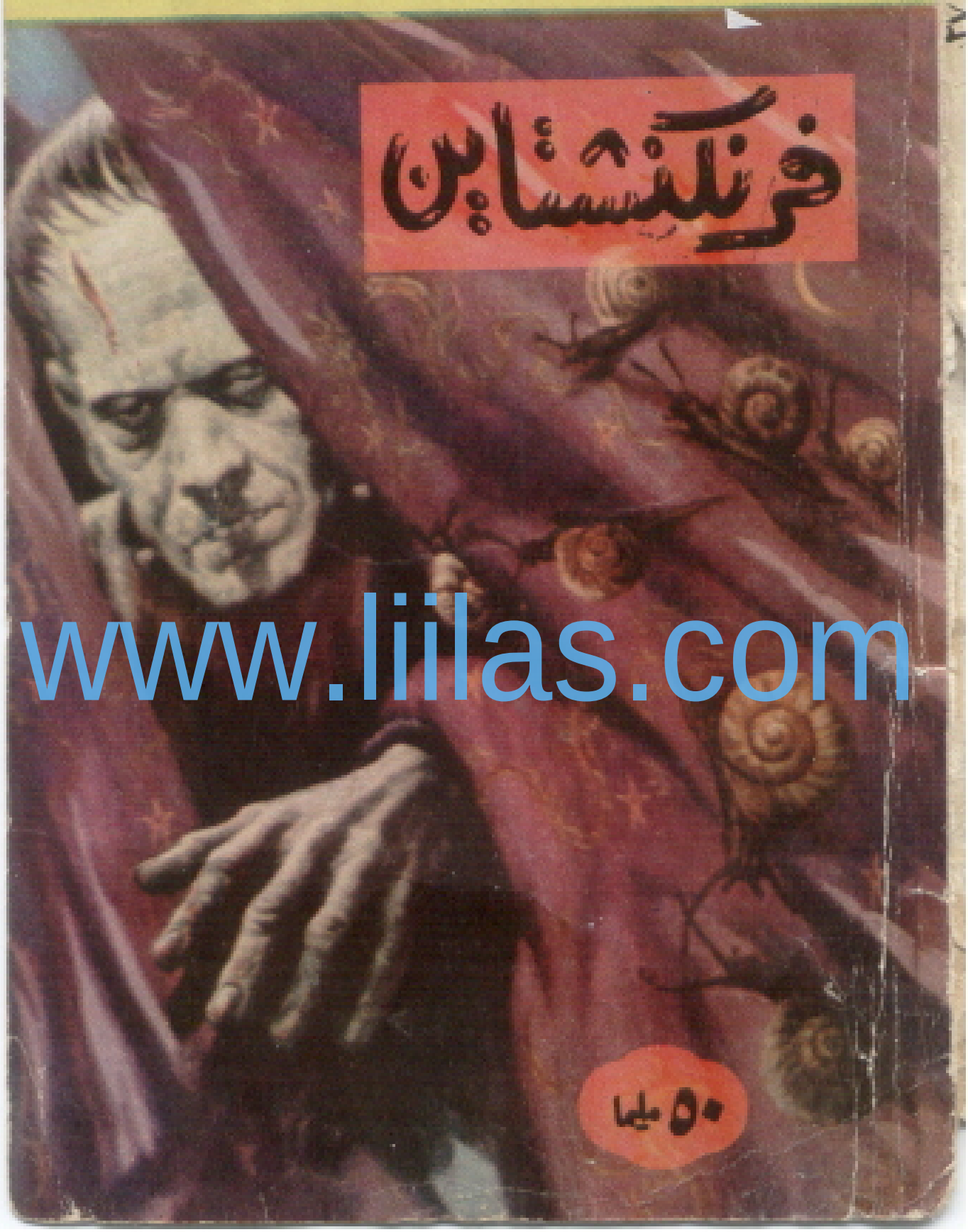

www.liilas.com

۵۰ میلیا

روايات الجيب

www.liilas.com

فرنكنشتاين

للكاتبة الانجليزية

ماري و. شيللي

ترجمة

عمر عبد العزيز أمين

الرسالة الاولى

«من روبرت والتون الى شقيقته مسز سافيل بانجلترا»

سان بيترسبورج في ١١ يناير عام ـ ١٧ .

شقيقتي الحبيبة :

لاشك انك ستسرين عندما تعلمين بنبأ وصولي اخيرا الى سان بيترسبورج دون ان يصيبني مكروه .. فطالما نظرت الى رحيلي نظرة المتشائم الملتاع الذي يوجس خيفة من كل شيء .

بلغت هذه المدينة امس ، وكان اول ما فكرت فيه هو الكتابة اليك راجيا في الحاح ان تنزعي من ذهنك المخاوف التي تخالجك من ناحيتي ..

انني الآن بعيد عن لندن بجوها الخانق المتصاعد من حرارة الانفاس .. وطالما تذكرتها وانا اخترق شوارع سان بيترسبورج حيث يلفح هواؤها البارد خدي فيبعث في اعصابي الحيوية والنشاط ويملؤني بهجة وانشراحا .. انه شعور لذيذ هذا الذي يخالج المرء عندما ينزح من بلده الى بلد اخر من تلك البلدان الثلجية النائية .

هل يخطر ببالك يامرغريت ان الشمس هنا لا تغرب ليل نهار فهي دائما وابدا عند نهاية الافق كأنها هي ملتصقة به تنشر اشعتها اللينة الساطعة على تلك الربوع البعيدة التي تبدو فيها الطبيعة في ابهى حللها واروع مظاهرها ..

يخيل الي انني في حلم سعيد اود من صميم قلبي ان الا افيق منه وهل هناك اسعد من امرىء تكاد ان تحقق امنيته .

لقد كانت هذه الرحلة التي جازفت بالقيام بها هي مدار تفكيري والامل الذي يخايلني لاالوه سنين طويلة

www.liilas.com

لقد اهملت دراستي واهملت نفسي ولم اعن الا بقراءة كتب الرحلات .. أوثرها على الطعام والنوم وأعطيها من نفسي وقلبي كل شيء .. ومنذ ذلك الوقت المبكر وانا احلم في يقظتي برحلة اقوم بها الى المجاهل القطبية النائية التي لم تطرقها قدم انسان .

ومضت ست سنوات حتى اذا شاء الله ان تتحقق امنيتي رحت اروض نفسي على احتمال المشاق فرافقت صائدي الحيتان في كثير من رحلاتهم الى بحر الشمال وعانيت ، عن رغبة ، البرد الذي بهرا الاجسام والجوع والظمأ والسهر والحرمان كما آليت على نفسي ان اكون اكثر من رفاقي عملا وانتاجا فانا اقضي نهاري في كد وتعب وليلي في اكتساب علم جديد عن مسالك البحار ومعرفة الجهات .

كان في استطاعتي ان اقنع بالحياة بينكم حيث الطمأنينة والرفاهية ولكني آثرت عليها المجد والفخار ومجابهة الاخطار والسعي الى الموت .. وفي الموت الخلود ! . .

ولعل ما يدفعني هو احساسي وايماني بالنجاح .. فكل خفقة من خفقات قلبي وكل جارحة من جوارحي تهتف بي ان اسعى والله معي يشد أزري ويبسط على ظل حمايته . وهذا هو ما يجعلني ارنو الى يومي وغدي بعين باسمة وقلب مفعم بالامل ...

سأغادر سان بيترسبورج في بحر ثلاثة اسابيع قاصدا « اركانجل » حيث عزمت على استئجار سفينة من هناك .. وانتقاء ما يلزمها من البحارة ، كما انه ليس في نيتي البدء في الرحلة قبل شهر يونيو القادم . ومتى اعود ؟ ! .

كيف اجيب على سؤالي اذا كان مقدرا لي النجاح فقد تجتمع بعد شهور .. بل سنين أما اذا فشلت فسوف ترينني قريبا جدا أولا ترينني مطلقا .

الوداع يا مرغريت وليكلاني الله برعايته ويرصدني بعنايته ..

اخوك المحب : روبرت والتون

الرسالة الثانية :

اركانجل في ٢٨ مارس عام — ١٧

« ما أبطأ مرور الوقت هنا ! .

لقد قمت بالخطوة الثانية تمهيدا للقيام بمشروعي .. فاستأجرت السفينة ولازلت منهمكا في البحث عن البحارة الذين سيرافقونني في رحلتي وليس ذلك بالعمل الهين .. فلابد من اناس أستطيع الوثوق بهم والاعتماد عليهم ، ولكن الشيء الذي ينقصني ويضنيني هو عدم اعثر لرجاء ويبعث في قلبي ضياء الامالي المجلوة كما وجود صديق آنس اليه وأستوحيه آمالي واستلهم منه يبعث الصباح الباسم في الافئدة همتي ويصائحني مهنئا اذا ما قدر لي النجاح ؟ ! .

من سيزجي الى العزاء ويمسح على قلبي بيده الحنونة اذا ما انتهت حياتي بالفشل وهو شر ما تنتهي به حياة انسان ؟ ! .

من بجانبي استرشد برأيه واستنير به واجادله واجاذبه أطراف الحديث واقتل الوقت معه احدثه عن آمالي وأماني .. ولذا سأرصد شعوري وحركاتي على الاوراق وهذه اضعف وسيلة للتعبير عما يجول بخاطري

أريد صديقا يحس احساسي ويحمل لي في قلبه ما أحمله له وينزلني في نفسه مكانة من نفسي .. قد

www.liilas.com

تظنينى خياليا ولكن الواقع غير ذلك فانا فى اشد الحاجة الى صديق وفى شجاع يحنو على اذا ما حزنت ويمد الى يده اذا ما كبوت .

انها شكوى مريرة لن افيد منها شيئا فلن اجد ما انشده فى المحيط المتسع ولا فى اركانجل بين التجار ورجال البحر ولكنى مع ذلك اجد بعض العزاء فى التحدث الى الشاب الذى اصطفيته ليكون ضابطا لسفينتى فهو شجاع .. ويهيم بالمجد الى حد الجنون اذ ما كاد يسمع عن مشروعى حتى راح يحبذه بكل بكل قواه وكذلك الربان فهو عليم بمسالك المحيطات والبحار ويمتاز بالنبل وطيب القلب وقد رثيت له عندما سمعت قصته اذ احب فتاة روسية متوسطة الثروة .. وتزوجها وراح يتكلف الشقاء ليسعدها ويجعل حياتها مفعمة بالنور والابتسام فياضة بالاحلام الرضية والانغام الدافقة بالحنين حتى اذا عاد الى بيته ذات مساء وجدها شاحبة الوجه يعلو صدرها ويهبط بالخفقان والانين والدموع تتدفق من عينيها كما يتدفق الماء من الشلال الغاضب فسالها ما الذى يبكيها ولكنها كتمت ما يعتلج فى صدرها فلم يزل وراءها حتى جمعت اشتات نفسها لتقول انها كانت بشاب آخر فقير تذويه التعاسة ويضنيه الحرمان وهى تريد أن تفترق عنه لتتزوجه رغم انها على يقين من عدم موافقة ابيها على ذلك ..

وتحرك قلب الرجل وضحى بسعادته ليسعد زوجه وكان يكتنز بعض المال لينفقه فى الايام العصيبة التى يكون فيها عاطلا عن العمل فابتاع بها مزرعة اهداها الى صديق زوجته بعد أن سرحها فى ليلة زفافها بالاخر ولم يبق بينه وبينها سوى الدموع يذرفها كلما أحس بحاجة الى البكاء !.

يانبل قلبه !! ..

وما أشبهه بهؤلاء القديسين الذين ارتضوا ان يخففوا من ويلات الانسانية بما يسكبونه عليها من الوان الرحمة والرجاء بينما هم فى قرارة نفوسهم يضيقون بالعيش سأما ويأسا ! ! .

شقيقتى الحبيبة ..

اننى فى حاجة الى دعوتك فاذكرينى فى كل صلاة واسأل الله أن يلهمنى الصواب ..

أخوك المحب
روبرت والتون

الرسالة الثالثة :

١٧ يوليو عام — ١٧

« شقيقتى العزيزة ..

ستكون رسالتى قصيرة هذه المرة وما كتبتها الا لاطمأنك على سلامتى وستصل هذه الرسالة الى انجلترا عن طريق تاجر سيقوم برحلة من اركانجل اليها فهو اسعد منى اذ من المحتمل الا تكتحل عيناى بمرأى الوطن الحبيب مرة أخرى ، ولو لعدة سنوات .

اننى فى حالة جيدة ورجالى جميعا راضون عن رحلتى .. محبذون لها فلن يوقفهم شىء يثنى من عزمهم .. حتى ولا جبال الثلج الهائلة التى تمر بنا على الدوام بما فى ذلك من خطر عظيم على سلامتنا ..

لم يحدث ما يستحق الاشارة اليه فى رسالتى اللهم الا هبوب زوبعة جارفة من النوع الذى اعتاده البحارة فى رحلاتهم ..

الوداع يا عزيزتى مارغريت وثقى تماما انه من اجلك

www.liilas.com

فقط سوف لا ازج بنفسي في مواطن الهلاك ولكن النجاح سوف يكون حليفي ، ولم لا ؟ ! ..

الم اعبر بحارا نائية لم يعبرها احد من قبل ؟ ! .

الم اترك الطرق الامنة المأهولة لاتحم نفسي في المسالك المقفرة والسبل الوعرة ؟ ! .

ستشهد النجوم في عليائها بنجاحي .. وستضع الفخار والمجد على هامتي وثقي أنه لن يوقفني شيء في سبيل ما أرجوه .. رعاك الله على الدوام لاخيك :

روبرت والتون

الرسالة الرابعة :

٥ غشت عام — ١٧

لقد حدث شيء غريب من الصعب الا اشير اليه رغم أنه من المحتمل أن ترينى قبل أن تصل هذه الرسالة الى يدك .

كانت الثلوج تحيط بنا في يوم الاثنين الماضي (٣١ يوليو) مما اضطر السفينة الى الوقوف في عرض المحيط وكان موقفا خطرا الى حد ما وخاصة وسحب الضباب الكثيفة كانت تشملنا من كل جانب فرحنا جميعا نصلى صلاة عميقة نتوسل فيها الى الله أن يلهمنا مخرجا من الخطورة المحدقة بنا وانتظرنا عسى أن ينقشع الضباب ويتحسن الجو لنستأنف رحلتنا ..

وكأنما استجاب الله دعواتنا فذاب الضباب في نحو الساعة الثانية ولكن الجليد ظل كما هو أبدا لنا المحيط صحراء شاسعة مترامية الاطراف لاحد لها ولا نهاية .. وغيم الوجوم على بعض البحارة بينما أخذت تخالجني شتى المخاوف عندما سقطت أعيننا فجأة على

مشهد غريب ..

رأينا على بعد نحو نصف ميل من سفينتنا عربة منخفضة تشبه بزحافة تجرها الكلاب تسير مسرعة نحو الشمال .. ويقودها شخص كبير الحجم الى حد يثير الدهشة فرحنا نرقبه من خلال نظاراتنا المكبرة حتى غاب عن أعيننا بين الثلوج ..

أثار هذا المشهد دهشتنا لاننا كنا على مسافة مئات الاميال من الارض ولكن هذه الرؤيا جعلتنا نغالط انفسنا .

وبعد نحو ساعتين تحطمت الثلوج التى تحيط بنا واصبح في وسع سفينتنا المسير قبل حلول الليل ولكننا فضلنا الانتظار حتى الصباح لئلا نضل الطريق في حلكة الظلام أو نصطدم بجبل من الثلوج العائمة فيمزق السفينة شر ممزق ..

وفي الصباح ما كاد الضوء ينشر الوانه على تلك البقاع حتى صعدت الى السطح لاجد بحارتي مجتمعين في مكان وهم يتهدئون الى شخص في زحافة تقف في اسفل السفينة على قطعة كبيرة من الثلج وكانت الكلاب التى تجرها قد فنيت كلها ما عدا واحدا ..

ورأيت البحارة يطلبون من الرجل الصعود ولكنه أبى ولما اقتربت من حافة السفينة وثنيت عنقي الى اسفل قال له البحارة :

— ها هو ذا الكابتن وهو لن يدعك تلقى بنفسك في المهلكة التى عزمت عليها بالسير بين الثلوج القاتلة .

وما رآني الرجل حتى قال في لغة انجليزية صحيحة تشوبها اللكنة الاجنبية : قبل أن اصعد الى سطح سفينتك هل تسمح لى بذكر وجهتك ؟ ..

لعلك تتصورين مقدار الدهشة التى بدت على وتنفذ

www.liilas.com

عندما سمعت هذا السؤال يلقى على من رجل محطم يائس قيض الله سفينتى لنجاته من موت محقق .

قلت : اننا نقوم برحلة لاكتشاف مجاهل القطب الشمالى .

وما سمع ذلك حتى اقتنع وقبل ان يعتلى سفينتنا .

يا الهى .. لو رأيته يا مرغريت لذبت شفقة عليه ، كانت ساقاه متيبستين من هول البرودة ، كما كان جسده منهوكا الى اقصى حدود الانهاك . كان حطاما لا هو بحى ولا هو بميت .

وحاولنا حمله الى غرفة داخلية ولكنه ما كاد يبتعد عن الهواء الطلق حتى اغمى عليه فعدنا به ثانية الى السطح وبذلنا جهدنا لافاقته بتدليك اعضائه واسقاط بعض قطرات الخمر فى فمه . حتى اذا افاق اخبرا اسرعنا بلفه فى غطاء من الصوف وارقدناه بجانب مدخنة المطبخ وقدمنا اليه قليلا من الحساء كانت لها فعل السحر فى استرداد عافيته الى حد ما .

ومضى عليه يومان قبل ان تنفرج شفتاه بكلمة حتى لقد خشيت عليه من فقدان الذاكرة لكثرة ما ادركه من كد ونصب .

وعندما تحسنت حاله قليلا نقلته الى غرفتى ورحت اعنى به على قدر استطاعتى . لم ار شخصا يحاكيه فى حياتى اذ كان شارد النظرات ينم بريق عينيه على الجنون . واحيانا عندما يرانى احنو عليه يضىء وجهه وتتلالا تقاطيعه بالحمد والشكر ولكنه على العموم شاحب النظرات تنم اساريره عن حزن فارط دفين وكثيرا ما اسمعه يصر باسنانه كأنما هو واقع تحت تأثير حمل ثقيل لا يقوى على النهوض به .

وما علم البحارة باسترداد قوته قليلا حتى انقضوا

عليه يدفعهم الفضول وهم يسألونه عن السبب الذى من اجله جاء بزحافته الى هذه المجاهل الوعرة .

وازداد وجهه تجهما وهو يقول فى صوت كنزع الميت :

— لقد كنت اثاثر شخصا هرب منى ..

— وهل الرجل الذى تتأثره يسير بنفس الطريقة ؟!.

— نعم ..

— اذن فهو الذى رأيناه فى اليوم السابق لقدمك .. لقد شهدنا شخصا يسير مسرعا على زحافة تجرها الكلاب ..

وبرقت عينا الرجل ببريق يدل على الاهتمام وسأل عن وجهته فقيل له :

— لقد كان منطلقا الى الشمال ..

وعندما اختلينا ببعضنا قال لى :

— لعلى اثرت فيك مكامن الدهشة والاستغراب كما حدث مع رفاقك الرحماء ولكنك مع ذلك لم تسألنى شيئا ! ؟ ..

— لعل من قلة الذوق ان ازعجك بينما انت فى حاجة الى الراحة والسكون ..

— انى ادين لك بحياتى يا سيدى ..

وسألنى بعد ذلك عن وجهة طريدته بالضبط فاجبته بنفس ما اجاب به بحارتى معتذرا باختفائه وراء الثلوج وربما بلغ مكانا امينا قبل ذوبان الجليد والا لتحطمت زحافته ولكانت اثرا بعد عين .

ومنذ هذه اللحظة تغيرت حال ضيفنا فقد دب فيه النشاط كما تدب الحياة فى الميت وراح يقضى ليله ونهاره على سطح السفينة آملا ان تعود زحافة طريدته الى الظهور ولكنى طلبت اليه ان يعود الى الغرفة ويريح نفسه على ان نقوم نحن بهذا العمل . . .

www.liilas.com

واصدرت اوامرى الى كل من فى السفينة بمراقبة الطريق واطلاعه فى التو على مايراه ...

وقبع صاحبنا فى غرفته صامتا لا يريم وقد تركزت حواسه فى السمع والبصر فهو بدا يراقب الباب كأنما قد شدت اهدابه بخيط متوقعا أن ينبثه أحد برؤية طريدته بين كل لحظة واخرى . وعلى الرغم من أن بحارتى نادرا ما يتصلون به فهم يكنون له فى قلوبهم كل اعزاز واجلال ولما أنا فقد بدات أحبه كأنه شقيق لى وحزنه العميق وآلامه الدفينة يحزان فى قلبى كثيرا ولا شك أنه منحدر من أسرة عريقة لما يبدو على وجهه وحركاته من نبل واخلاص .

واذكر مرة اننى ذكرت لك يا مرغريت فى احدى رسائلى اننى لن اجد صديقا فى المحيط الشاسع ولكن ها هى ذى المعجزة قد وقعت فعثرت على رجل كنت اتمنى ان يكون لى بمثابة الاخ قبل ان يحطمه البؤس ويقصم ظهره الشقاء ساكتب اليك يا شقيقتى عنه فى فترات متقطعة ودمت لاخيك :

روبرت والتون !

١٣ اغسطس عام — ١٧

« ان شعورى نحو ضيفى يزداد يوما بعد يوم ففى كل لحظة تمر يزداد اعجابى به وميلى اليه فهو طيب القلب مثقف واسع الاطلاع يتقن فن التحدث ورائع الى أقصى حدود الروعة ما يكاد انسان يجلس اليه حتى يقع من نفسه موقعا حسنا .

وصحته الان فى تحسن مستمر ، وحدث ذات مرة ان جلست معه اساهمه الحديث . وكان يدور حول النبوغ والمجد ، فرحت اشرح له كيف اقدمت على رحلتى

وفتحت له مغاليق قلبى قائلا : اننى أهب حياتى رخيصة فى سبيل نجاح مشروعى الذى طالما داعب خيالى منذ سنوات .. فحياة الانسان او موته لن تكون الا ثمنا ضئيلا ينفقه لكى تتحقق أمنيته وتاتى بالثمرة المرجوة .

وبينما كنت اتحدث لحظت ان عينيه تلمعان ببريق غريب ، وقال فى صوت يختلج بالنحيب : يا لك من بائس يا صديقى ! هل قدر لك ان تشرب من الكأس التى شربت منها ؟ ! اصغ الى ياصديقى ولاشك انك بعد أن تستمع الى قصتى المؤسية ستنتزع الكأس من بين شفتيك وتحطمها شر تحطيم !

واستانف الحديث بأن سالنى عن تاريخ حياتى منذ كنت صغيرا ، فسردته عليه فى ايجاز وتكلمت عما كان يختلج فى ضميرى من عدم عثورى على صديق يؤنسنى فى وحدتى ويسقط فى اذنى عبارات التشجيع والتحبيذ للاقدام على مشروعى الخطير ويتاسمنى نجاحى وفشلى .. بسماتى ودموعى .

فأجابنى صاحبى : اننى معك . فانت على حق ، اذ ينبغى ان يكون للمرء صديق مخلص .

١٩ اغسطس عام ١٧ :

قال لى ضيفى امس :

— لعلك ترى يا كابتن والتون من ملامحى اننى قد عانيت من النكبات مالو وزع على البشرية جمعاء لناء كل بحمله . وكنت قد عاهدت نفسى ذات مرة ان لا اكتشف عن قصتى الذبيحة سترا واحدا .

كن مستعدا لسماع حوادث غريبة حقيقية ، ولكنها

www.liilas.com

أغرب من الخيال .. ويكفي ان يكون سواردها هو بطلها الجاثم بجانبك ، وكل ماأخشاه الا تصدقني ، ولكن حسب الادلة المادية التي ستراها بعيني رأسك تنتزع منك التصديق انتزاعا ..

تملكني شغف غريب لسماع قصته ، ووددت لو بدأها على الفور .. لكنه قال :

— ان كل ما انتظره هو حادث واحد ثم انام نومتي الابدية مستريح البال لا يقلقني شيء .

واتفقنا بعدئذ على ان يبدأ سرد قصته في اليوم التالي في فراغي ، فشكرته في حرارة . حتى اذا حل الميعاد راح يفي بوعده، بينما كنت أنقل قصته في فترات منتظمة باذلا جهدي الا اغير فيها شيئا، حتى الكلمات التي نطق بهـا . وسوف تسرين جدا يا مرغريت عندما تقرئينها .

— ١ —

أنا سويسرى النشأة انحدر من عائلة نبيلة بارزة يعرفها الماضي والدانى ، فأجدادى جميعا شغلوا مراكز كبيرة وبذلوا للارتقاء بوطنهم ما فى وسعهم . وكذا ابى كان موضع تقدير الجميع بنزاهته واخلاصه ، ولو ان الظروف التى احاطت به لم تمكنه من الزواج المبكر اذ مضت عليه أعوام طويلة قبل أن يكون والدا ورب عائلة .. واما الظروف التي تم فيها هذا الزواج فلا أرى ما يحول دون سردها اليك كما سمعتها منه :

كان لابى رفيق ، وكان تاجرا موفور الثراء يدعى « بوفور » وكان مركزه فى عالم التجارة وطيدا ثابتا ، وشاء القدر القادر أن يدبر له مكيدة ، فاذا به يتخلف عن التوفيق فيحال بينه وبين العيش احالة عنيفة .

وكان عزيز النفس فابى أن يستأنف العيش فى بلد احتواه وهو فى أعز أيامه ونزح منها كارها الى «لوسرن» ليحيا فيها فقيرا مجهولا الى أن يشـاء الله أمرا كان مقضيا !.

وتناهت الى أسماع ابى ، الحال التى وصل اليهـا صاحبه فكاد يتمزق قلبه بددا ، واعتزم فى نفسه أن يمد يده الى صديقه فيقيله من عثرته ، وراح يبحث عنه ما وسعه البحث .

وكان « بوفور » قد اتخذ الاهبة لاخفاء نفسه ، حتى كاد ابى ييأس من الاجتماع به . واخيرا — بعد عشرة شهور — علم بمكانه فهرع اليه يلهب الارض بقدميه ، حتى اذا فتح الباب لمالمته مظاهر البؤس والعوز الشديد، كان بوفور قد ادخر مبلغا تافها ثم يكفه لبضعة شهور ، وقع فى نهايتها صريع المرض الذى أصابه ، وراحت ابنته كارولين تسهر عليه وتعنى به .

وكانت كارولين فتاة حادة الذكاء قوية العزيمة لايعرف قلبها الهزيمة .. وجال بخاطرها أن تنهض لتجـاهد الحياة ولتدفع البؤس بمنكبها لتـذود شبح العوز عن ابيها وعن نفسها .

ومضت شهور وهى تعمل وتكدح ، بينما كان أبوها تسوء حاله رويدا رويدا مما دعا الى قضاء أغلب وقتها معه ، وكان ذلك سببا فى نضوب منبع رزقها الضئيل ، وكان القدر الضنين الاثم ابى الا ان يزجى اليها الاحزان فرادى فهو يفتن فى النكر ويتبعها بلحظ قاتل وهو يمعن فى الكيد ، حتى لكأنما بينه وبينها ثأر قديم .. ! اذ مات أبوها فى الشهر العاشر تاركا فتاته تتـاضل الخطوب والكوارث دون مرشد أو معين .

عندما دخل عليها ابى كانت منحنية فوق جثة ابيها

www.liilas.com

فبكى ما شاء له البكاء ، وعاد الى جنيف ومعه الفتاة التي ما لبثت أن أصبحت زوجته بعد مرور عامين على هذه النكبات المفجعة .

وما هي الا سنة او نحوها من حياتهما معا حتى وهبهما القدر طفلا وكنت ذلك الطفل .. وكأنما اقتصر القدر على ، فظللت ولدهما الوحيد اعواما عديدة .

وراحت امي تضرع الى الله ان يرزقها بابنة تؤنسني وتداعبني ، ولكن الله لم يجب دعاءها .

ولما كانت الحاجة قد عبثت بها حينا من الدهر ، فهي تدري مالها من حسرة لاذعة والم بليغ .. لذا كانت تأخذني معها [وكنت في الخامسة من عمري وقتئذ] الى الاحياء الفقيرة حيث تواسي اهلها وتساعدهم بشيء من المال .. وحدث في احدى المرات ان كان ابي منطلقا في رحلة الى (ميلان) وخرجت مع امي لمواساة المعوزين وذوي الحاجة ، فرات فلاحا وزوجه يعملان في الارض تاركين لقيمات لا تغني من جوع لخمسة اطفال يلتهمونها في شراهة ونهم .

وبين هؤلاء الخمسة طفلة استرعت اهتمام امي دون الباقين اذ كان يبدو عليها انها تختلف عنهم ، فهي زرقاء العينين كزرقة السماء ، ناصعة البشرة كلون الثلج ، ذهبية الشعر كأنما قد نسج من خيوط الشمس عند الغروب .. فهي لم تكد تراها حتى وقعت من نفسها لساعتها . وبسؤال زوجة الفلاح عنها اجابت بأنها ليست ابنتها ، بل ابنة احد نبلاء [ميلان] وكان قد تزوج من فتاة المانية ، ولدت له هذه الطفلة ثم لم يمهلها الردى فقضت قبل ان يلامس عينيها النور .

أوعية إدخار

البنك الأهلي المصري

أمان وضمان لك ولأسرتك

صندوق توفير — البنك الأهلي المصري يقبل الودائع من ٢٥ قرشا بفائدة ٣ ٪ سنويا

شهادات استثمار — البنك الأهلي المصري

بنك المدرسة — يقبل الودائع من ٢٠ مليما

ودائع لأجل — بفائدة تصل إلى ٤ ٪

خزائن حديدية — لحفظ المقتنيات الثمينة والمستندات الهامة

جهاز أمناء الاستثمار

• تفيد المستثمر العربي في مصر وفي كل بلد من البلاد العربية
• يرد على المستثمر من كل مكان في الوطن العربي
• يدير له أمواله أمينا كاملا ويستثمارها أحسن استثمار

البنك الأهلي المصري

خبرة ٧٠ عاما في كافة الخدمات المصرفية

www.liilas.com

وكان أبوها وطنيا غيورا ارتضع مجد بلاده ولم يرتض لها الذل والمهانة فراح يدافع عنها وعن حريتها حتى ذهب ضحية ، فلم تعد تسمع عنه شيئا .

وعندما عاد أبى من [ميلان] وجدنى اساهمها اللعب فى ردهة الفيللا التى تسكنها وسرعان ما علم بالأمر واجاب رغبة أمى فى أن يتبنياهـا ، ومنذ ذلك الوقت اصبحت « اليزابيث لافينزا » شقيقة روحى !

- ٢ -

وعندما انجبت أمي طفلها الثانى الذى يصغرنى بسبع سنوات كان أبواى قد انصرفا عن حياة التنقل والارتحال وثبتا نفسيهما فى جنيف حيث كنا نمتلك بيتا فيها ، وحقلا فى [بلريف] يمتد على الشاطىء الشرقى من البحيرة على بعد نحو فرسخ او اكثر من المدينة .

ونشأت منذ حداثتى اتفر من الناس واميل الى الوحدة حتى ابان دراستى ، ولكن شخصا واحدا استمال قلبى ، وهفا فؤادى اليه ، فاصطفيته من بين رفاقى ليكون صديقى وتوام نفسى ، ويدعى هنرى كليرفال ، وهو ابن تاجر فى جنيف .

ولعل ماحببنى اليه هو روحه الشاعرية وحبه للمغامرات ورغبته فى التشبه بهؤلاء الابطال الذين نسمع عنهم فى القصص والاساطير .

ومر بى وقت احسست فيه ان رغبتى فى الدرس والاطلاع تزداد شيئا فشيئا فوجهت كل اهتمامى الى دراسة علمى الحياة واسرار الكون ، بينما شغل صديقى كلير فال بدراسة سير الابطال واصحاب الشخصيات المبرزة .

وعلم الحياة الطبيعية هو الذى قرر مصيرى ، ولذلك اود - فى سياق قصتى - ان ابين الاسباب التى حببت الى دراسة هذا العلم . . .

عندما كنت فى الثالثة عشرة من عمرى قمنا جميعا برحلة الى الحملمات القريبة من بلدة [ثونون] فاضطرتنا رداءة الجو ان نقضى يوما فى احدى الحانات حيث عثرت على كتاب علمى تأليف « كورنيليوس اجريبا » . وما ان تصفحته حتى استهوتنى قراءته وراعتنى نظرياته كما راعتنى الادلة القاطعة التى يؤيد بها صدق نظرياته ، وسرعان ماانقلب شغفى حماسة وبدا لى كان ذهنى قد تفتح على نور جديد ، فكاد يقفز قلبى من الفرح وانطلقت الى والدى ازجى اليه نبأ اكتشافى فى سرور وغبطة ، ولكنه القى نظرة عابرة على عنوان الكتاب وقال:

— آه .. كورنيليوس اجريبا ؟ ! يا عزيزتى فيكتور لا تضيع وقتك فيما لا فائدة فيه ..

ولو ان ابى شرح الامر قائلا ان نظريات اجريبا قد ادركها البلى وطغت عليها نظريات حديثة تدل على تقدم الفكر البشرى لتركت الكتاب جانبا . ولكن النظرة المبهمة التى القاها والدى على عنوان الكتاب افهمتنى انه غير عليم بمحتوياته فلم القى بالا الى نصائحه وجعلت استعيد قراءاته وانا اشد ما اكون رغبة فى فهم كل كلمة من كلماته .

وعندما عدت الى البيت كان اول ما فعلته هو اقتناء كل ما كتب هذا المؤلف العبقرى .

ومهما يبلغ العالم من العلم ، فهو لن يلم باسرار الطبيعة الخفية . وقد حاولت من جانبى ان اقف على العوائق التى تحول دون تغلغل الناس فى تفهم اسرار الطبيعة ومعرفة دقائقها وخفاياها ، ولكن سرعان ما

www.liilas.com

بؤت بخذلان مبين ! .

كانت لدى الكتب ارتوى منها كما اشاء ، وكان لدى العلماء الذين قضوا حياتهم فى البحث والتنقيب ، اسألهم وأقارعهم الحجة بالحجة والدليل بالدليل حتى اصبحت اخيرا ندا لهم فهم يقدرونني ويرمقونني بنظرات الاعجاب والاكبار .

قد يبدو لك غريبا أن أظهر فى القرن الثامن عشر ، واكنك سوف لا تدهش عندما تعلم انني بينما كنت اتلقى العلم فى مدارس جنيف ، كنت اختلس الوقت للتفرغ الى دراسة كتبى المفضلة . ولما كان والدى ممن لايمتون للعلم بصلة ، فقد تركنى اكافح وحدى ما دمت منعطشا الى النبوغ ، تواقا الى المجد .

وكان كل املى وقتئذ ان أصل الى « اكسير الحياة » . كما كانت أول صدمة منيت بها هى الحاجة الى ثروة هائلة تساعدنى على تحقيق امنيتى . ولكن متى كان المال سببا يعوق دون الوصول الى المجد اذا استطعت ان انقد البشرية من آلامها واحول بينها وبين الامراض التى تصيبها وتفسدها ، واكسب الاجسام مناعة تجعل الحياة تدب فيها على الدوام ؟ .

رحت اقابل النظريات بعضها ببعض ، وقتلت نفسى فى البحث والاطلاع حتى وقعت حادثة غيرت مجرى افكارى .

ذلك انني كنت فى الخامسة عشرة من عمرى عندما ذهبنا جميعا الى بيتنا الكائن فى ضاحية « باريف » انتجاعا للراحة حيث شاهدنا عاصفة مدمرة هبت من خلف جبال « جورا » .

فما لبث ان رعد أن انبعث من السماء فى صوت داو مجلجل فوقفت مكاني حتى تنتهى العاصفة وانا ارقب كل

شىء حولى فى لذة وغبطة .. وعلى حين غرة رايت لسانا من اللهب يشق شجرة سنديان ضخمة تبعد عن منزلنا بنحو عشرين ياردة . وما ان تلاشى الضوء حتى اختفت الشجرة فلم اجد لها اثرا ، اللهم الا حفنة من الرماد الاسود .

وعندما فحصنا بقاياها فى اليوم التالى وجدناها تحطمت بطريقة غريبة ، فهى لم تمزق فى شظايا صغيرة ، وانما شقت فى شرائح مستطيلة من الخشب!

لم اكن قد درست علم الضوء قبل هذه الحادثة ، فرحت اسأل احد العلماء — وكان قد راى معنا ما حدث عن أصل هذه الظاهرة الغريبة، فمضى يشرح لنا النظرية التى كونها عن الضوء والكهربائية الضوئية . ومنذ هذه اللحظة اهملت دراساتى القديمة فى كتب « كورنيليوس اجريبا » ، واوقفت اهتمامى على علم الضوء وفروعه !!

— ٢ —

عندما بلغت السابعة عشرة ، عزم ابواى على ان يرسلانى الى جامعة انجلوستادت، وحدد لسفرى موعدا مبكرا ، ولكن ما كاد يحل ذلك اليوم حتى وقع أول حادث اليم كان بمثابة نذير ينبئنى بمستقبل مظلم ، اذ اصيبت الى زابيث بالحمى القرمزية واصبحت فى خطر من الموت .. ولما كنا نخشى العدوى فقد الححنا على امى بالابتعاد خوفا من ان تصيبها سارية من هذا الداء الفتاك فقبلت فى أول الامر .. ولكنها عندما رات وطأة المرض تشتد على الفتاة لم تجد بدا من أن تعنى بها وتسهر على علاجها فراحت تقضى الليل والنهار بجانبها ضارعة الى

www.liilas.com

الله تعالى ان يمسح عليها بيد البرء ويظللها برحمته وعنايته .. واخيرا نجت اليزابيث لتحتل امي مكانها من الفراش .

وقع ما كنا نخشاه واصيبت امي بالعدوى ، فاذا هي تهذي وتهرف ، واذا بجسمها الرشيق يضعف ويضمحل ، وبعقلها الحصيف يخبو شعاعه ، واذا بهذا السحر المغطى بوشاح الخفر يجف ويتبدد ، حتى اذا كان اليوم المشئوم طلبت رؤيتي انا واليزابيث فاسرعنا اليها وجمين . وما ان تبيننا على ضوء السراج المرتعش حتى امسكت بايدينا معا ، وفتحت فاها وتحدرت منه هاته الكلمات :

ـ يا طفلي .. ان كل ما كنت اتمناه هو ان ترتبطا بزواج تباركه ملائكة السماء والارض .. وكم اود ان اغلق عيني على صورتكما وانتما في ثياب العرس ، ولكن يخيل الي ان القدر يريد ان يسلبني هذه الامنية . وكل ما يعزيني هو ان يبقى ابوكما بجانبكما عوضا عني فادعو الله مخلصة ان يمد في اجله حتى يراكما بعينه غارقين في غدير من السعادة والخلد . ثم اطبقت فاها في عسر

وكانما اراد ابي ان يبعدني عن بيت الاحزان وذكرياته المريرة القاسية ويدفع بي الى معترك الحياة ، فراح يتحدث الي في امر رحيلي الى جامعة انجلوسندات ، ورغب صديقي كلير فال في مصاحبتي ليلتحق معي بالجامعة ، ولكن اباه وقف حائلا بينه وبين ما يريد ، فهو يود ان يعطيه مقاليد تجارته بعد ان بلغ من الكبر عتيا . فرضخ صاحبي لمشيئة ابيه ساخطا متبرما .

وفي اليوم الموعود ركبت العربة التي ستقلني الى مكاني الجديد بين دعوات ابي وتنهدات كليرفال وبكاء اليزابيث .

ومضت العربة بي ، وقد خلوت الى احزاني ، فانا احس كان الايام تسلبني الحياة في سرعة وكان الموت يسعى الي .

وفي صباح اليوم التالي تسلمت خطابات التعريف وذهبت الى الجامعة لاقدم نفسي الى بعض الاساتذة الرئيسيين الذين سأستقي من مناهلهم العلم ، فكان اول من قابلته هو مستر كريمب استاذ علم الحياة الطبيعية وهو عالم متبحر معروف ، فالقى علي عدة اسئلة ليطلع على مقدار ما اعرف من ذلك العلم وفروعه . وما ان ذكرت له اسماء الكتب التي شغفت بها ودرستها حتى صاح بي مستنكرا : احقا انفقت وقتك في دراسة هذه السخافات ؟ ! .

فاجبته بالايجاب ، فقال في مرارة :

ـ لقد اضعت وقتك هباء في قراءة مثل هذه الكتب .

قال ذلك ثم اتكأ على ورقة يكتب فيها اسماء بعض مؤلفات عصرية تبحث في علم الحياة الطبيعية طالبا مني الرجوع اليها ثم اشار الي بان استمع الى محاضرات الاستاذ والدمان التي سيلقيها وسمح لي بالانصراف .

وفي اليوم الذي يليه دلفت الى قاعة المحاضرات ، وبعد لحظات جاء الاستاذ والدمان ، وكان يختلف عن مستر كريمب فهو في الخمسين من عمره باسم الوجه اشيب السوالف قصير القامة يمتاز صوته بالليونة والعذوبة . وقد بدا محاضرته بالتحدث عن تاريخ علم الكيمياء والتحسينات المختلفة التي ادخلت عليه بمرور الزمن ، وذكر اسماء من كان لهم الفضل في ذلك ، ثم راح يقارن بين العلم قديما وحديثا . وبعد ان قام ببعض التجارب اختتم حديثه قائلا :

ـ لقد كان اساتذة هذا العلم الاقدمون يعمدون

www.liilas.com

بالمستحيلات ثم لا يقومون بشيء منها . اما الاساتذة العصريون فهم يعدون بالقليل لانهم يعلمون ان المعادن لا يستطاع تحويلها ، وان اكسير الحياة ما هو الا وهم بالطل لا وجود له في الحقيقة والواقع . ولكنا لا نستطيع انكار فضل هؤلاء العلماء — الذين لم تخلق ايديهم واعينهم الا للعبث والحملقة في المنظار او البوتقة — على العلم ، فقد اتى بعضهم بالمعجزات فاخترق حجب الطبيعة وبين لنا كيف تقوم بعملها في نواحيها الخفية ، وصعد الى السموات وسبر غورها واكتشف كيف تجرى الدماء في شراييننا وأوردتنا ، كما حلل الهواء الذى نستنشقه وأوضح لنا تركيبه . واستطاع ان يحكم الرعود في السموات والزلازل في الارض .

وخيل الي وانا استمع الى كلماته انه يتلو على حكم الاعدام فانهارت آمالي واحسست كاني امام خصم عنيد يتوى بي سوءا ولكن الحقيقة ما لبثت ان تبلجت لناظري فاخذت استوعب ما قاله كلمة كلمة وانفهمها جيدا ، كما رحت افكر في نظريتين متضادتين .. هما نظريتا الحياة والموت .. الوجود والعدم . واستولت على وقتئذ رغبة جنونية في ان اميط اللثام عن هذا اللغز المعقد الذى لم يصل اليه احد من قبل ، فلو وقفت على هذا السر لفهمت كنه الحياة وتغلغلت في اعماقها ! .

واغلقت عيني في تلك الليلة وانا افكر وافكر واقول لنفسي : ليس من شك في انني لو وقفت على سر الحياة لاصبح في وسعي ان اصنع الحياة فاغدوا بين ليلة وضحاها سيد العالم الذى لم يبلغ مبلغ سيادته مخلوق!

وقبيل الفجر غفوت قليلا ، ولما استيقظت خيل الى ان افكار الامس اشبه شيء بحلم واحسست برغبة جديدة

في الرجوع الى المؤلفات القديمة ، ولكني تركت هذه الرغبة ثم ارتديت ملابسي وهرعت الى الاستاذ والدمان ازوره في بيته .

كان الاستاذ والدمان في حياته الخاصة رجلا رقيقا مهذبا عطوفا اكثر منه في حياته العامة ، فاستقبلني بحرارة ، بينما رحت أسرد عليه ماذكرته للاستاذ كريمب فاصغى الي باهتمام وابتسم عندما سمعني «اكورنيليوس اجريبا » وقال انه وامثاله هم الذين يدين اليهم علماء العصر الحديث في كل ما توصلوا اليه . فقد مهدوا لهم الطريق الى تفهم اسرار الطبيعة وغوامضها ، فهم مهما قاموا بعمل جليل لا ينكرون تراثهم المجيد . وعندما سألته عن بعض الكتب التي ينصحني بدراستها قال :

— انني سعيد اذ استطعت ان اربح تلميذا ، وما دمت تهوى العلم الى هذا الحد فثق من النجاح الاكيد . والكيمياء هي احد فروع علم الحياة الطبيعية الرئيسية ، وهي في تطور مستمر لكثرة ما يعنى بها العلماء ، وانا ذاتي شغوف بها واقضي اوقات فراغي في دراستها ، ولكني في نفس الوقت لا اهمل الفروع الاخرى . فاذا كنت تود ان تصبح رجل علم عن اخلاص وحق فانني ازجي اليك النصح بان تهتم بكل فرع من فروع علم الحياة الطبيعية دون ان تترك شيئا .

قال ذلك ثم دعاني الى زيارة معمله حيث اراني الاجهزة والالات وبين لي عمل كل منها وعلمني ماينبغي على ان اعلم ووعدني بانه سيسمح لي باستعمال معمله اذا وجد مني تقدما ونجاحا في المستقبل ، ثم ناولني قائمة بالكتب التي يجب ان اقراها فاخذتها شاكرا وانصرفت .

www.liilas.com

وما تلاشى نهار هذا اليوم حتى كنت قد حددت مصيرى !..

— ٤ —

ومنذ ذلك اليوم اصبح علم الحياة الطبيعية والكيمياء بصفة خاصة ، شاغلى الوحيد . فاخذت اقرأ الكتب واقتنيها بحثا واتهذ اقوال العباقرة وغيرهم ممن اصابوا فى هذا الميدان شاوا بعيدا . كما وجدت فى الاستاذين كريمب ووالدمان بحرين عميقين مليئين بالدرر واللآلىء ، فرحت اغترف منهما ما يطفىء ظمئى ويشبع نهمى . غير ان والدمان كان يمتاز عن زميله بصراحته واخلاصه ، فطالما مهد لى الطريق الذى يوصلنى الى المعرفة ، وكثيرا ما شرح لى نظريات اغلق على فهمها ، مما جعل نجاحى السريع يثير دهشة رفقائى واعجاب اساتذتى وخاصة مستر كريمب الذى كان كلما وقعت عيناه على قال فى ابتسامة ماكرة : « كيف حال كورنيليوس اجريبا » ؟ !

ومضى عامان لم يحدث فيهما ان زرت جنيف مرة واحدة ، فقد انسانى العلم كل شىء حتى نفسى . وحدث ذات مرة اننى كنت ادرس تركيب الهيكل البشرى وبعض الهياكل الاخرى التى تنبض بالحياة فتساءلت : « ترى ما هو اصل الحياة » ؟ ! .

كان سؤالا جريئا لم يستطع الانسان الاجابة عنه منذ بدء الخليقة .. فهو أبدا سر مغلق لا سبيل الى امامله اللثام عنه .. هل يرجع ذلك الى جبن العلماء واهمالهم ؟ ! ام الى فشل ثبط من عزائمهم ؟ ! لا ادرى ، ولكننى اعتزمت ان اجرب ذلك بنفسى ! !

اوقفت جهودى لمعرفة هذا اللغز المعقد فوجدت انه لكى اتوصل الى ادراك كنه الحياة ، ينبغى اولا ان اقف على سر الموت فرحت ادرس علم التشريح ولكن ما ان اتيت عليه حتى وجدته غير كاف اذ كان على ايضا ان ادرس علم انحلال وتعفن الجسم البشرى فقضيت الليالى الطوال فى القبور اخرج جثث الموتى من ارماسها واتعهدها بالفحص والتحليل حتى توصلت اخيرا الى ما ابغى ، فملكتنى الغرور وانتفخت اوداجى فخرا لان احدا من هؤلاء العباقرة الذين انفقوا اعمارهم فى ارتشاف مناهل العلم واكتشاف اسراره لم يوفق الى ما وفقت اليه .

عندما وجدت هذه القوة الهائلة بين يدى ، ترددت وقتا طويلا مفكرا فى الطريق التى استخدمها فيه ، فبالرغم من اننى املك القدرة على ان اهب الحياة ، فلابد اذن من ان اهبها الهيكل الذى سوف اضعها فيه من عظام والياف وعضلات واوردة وشرايين .. وكل ذلك يحتاج الى عمل مضن شاق حتى لقد شككت فى قدرتى على صنع مخلوق مثلى او مثل اى حيوان من الحيوانات الخالية من التعقيد البنائى ، ولكن طموحى مالبث ان طغى على شكوكى وتغلب عليها ، فعزمت على صنع مخلوق هائل الحجم كبير التكوين يبلغ طوله حوالى الثمانية اقدام . وبعد ان قضيت بضعة شهور فى جمع كل ما احتاجه من القبور قبعت فى غرفة كبيرة فى اعلى البيت اتخذتها معملا لى وبدأت عملى فى همة لا تعرف الكلل .

وانقضت شهور الصيف وانا غارق فى العمل ، اعيش بعيدا عن العالم ، لا يرانى احد ولا أرى احدا .. وقد تركمت حولى العظام والجلود باذلا كل ما فى وسعى

www.liilas.com

في اتمام مخلوقي العجيب حتى اذا حل اليوم العظيم رأيت امامي جسدا بشريا كاملا لا ينقصه الا العقل والروح !

- ٥ -

كان ذلك في ليلة من ليالي شهر نوفمبر العاصفة ، فجمعت اجهزة الحياة حولي لاقوم بالمحاولة الاخيرة ، وأبث الروح في الجثة الممددة تحت قدمي .

وعلى ضوء الشمعة الخافت رأيت عيني ذلك المخلوق تنفتحان في بطء وصدره يعلو ويهبط واعشاؤه تنقلص وتختلج !

لن استطيع وصف الشعور الذي تملكني وقتئذ وانا أرى بشرته الصفراء الشاحبة وشعره الاسود الحالك وأسنانه التي تشبه في لونها الطباشير ، وعينيه وهما تتالقان .

لشد ما يتغير شعور الانسان ! ! لقد أجهدت نفسي بالعمل المتواصل مدة عامين واضعا نصب عيني ان اهب الحياة لجثة عفنة ، وضحيت في هذا السبيل براحتي ، ولكن ما ان تكلل عملي بالنجاح حتى تبددت الاحلام الحلوة العذبة التي كانت غذائي حينا من الدهر ، وامتلا قلبي نفورا ورعبا .

لم أحتمل رؤية هذا المخلوق البشع ، فاندفعت من الحجرة وذهبت الى مخدعي وارتميت في الفراش دون ان أخلع ثيابي ، غفوت قليلا ، ولكن الاحلام المروعة راحت تلح على مخيلتي . فاذا بي أرى اليزابيث وهي تسير معي في شوارع انجولستادت وعلى وجهها الضير دلائل المرح والسعادة والانشراح ، واذا بي أضمها الى صدري واحاول ان اقبلها اقبلة الاولى غير أني لا اكاد افعل ذلك حتى أرى شفتيها تمتقعان ووجهها يتقلص ثم بملامحها تتغير فجاة ، ثم اذا بجسدها يستحيل

الى جثة .

واستيقظت من نومي مذعورا وقطرات العرق على وجهي .. وما ان فتحت عيني حتى وجدت ذلك المخلوق الذي صنعته واقفا على قيد خطوة مني ، يرفع الكلة عن الفراش بيده المعروقة الصفراء وينظر الى بعينيه الزجاجيتين وقد سقط فكه وانبعث من بين شفتيه صوت غريب .. ربما كان يتكلم ولكني لم اسمع الا غمغمة غير واضحة . وظل لحظة هكذا ثم مد يده الى ولكني اندفعت كالسهم خارج الغرفة وهبطت الدرج راكضا واختبأت في فناء البيت الذي اسكنه .

وهناك أرهفت اذني لكل صوت يعلن عن اقتراب تلك الجثة الممقوتة التي نفخت فيها من روحي ، وكان منظر الليل الموحش وانهمار الامطار وجيشان عواطفي كافية لان تلقي في نفسي احساسا عنيفا بالفناء ، فحاولت ان انجو من وحدتي المخيفة واخذت احدق النظر هنا وهناك ملتمسا ما يصرفني عن الفزع ويخفف الحمل الثقيل الذي ارزح تحته ، ولكني لم أجد سوى اللون الاسود يغمر كل ما حولي .. واخيرا انقضى الليل او كاد ، وبدا الفجر يتحلل من غلالته وينصاح ضوؤه شيئا فشيئا ، ودقت ساعة الكنيسة القريبة معلنة حلول الساعة السادسة فجاء حارس البيت وفتح باب الفناء الكبير فاندفعت الى الخارج أخترق الطرقات في خطوات سريعة مضطربة وانا التفت خلفي بين لحظة واخرى مخافة ان يكون المخلوق المخيف قد لحق بي .

واخيرا ، بعد ان أنهكني التركض واستولى علي التعب وقفت استريح أمام حانة قد ازدحمت امامها العربات ووسائل النقل ووقعت عيناي مصادفة على عربة كانت مقبلة من نهاية الطريق فجعلت أرقبها لحظة حتى اذا ما

www.liilas.com

اقتربت فتح بابها وخرج منها صديقى كليرفال ، فما ان رآنى حتى صاح وهو يندفع نحوى اهذا انت ياعزيزى فرانكنشتاين ما اسعدنى بلقائك .

لا استطيع وصف السرور الذى غمرنى عندما رايت صديقى كليرفال .

فقد ذكرتنى رؤيته بأبى واخوانى والبرابيث ، فرحت اشد على يده فى حرارة . وقد نسيت رعبى وفزعى ونسيت كل شىء !! وسرنا معا الى البيت الذى اسكنه وسألته عن اسرتى فاجاب :

— انهم فى خير حال ، لا يقلقهم الا زهدك فى الكتابة اليهم .

ثم سكت لحظة وحملق فى وجهى طويلا .. وقال :

— ما هذا الاصفرار الذى يغشى وجهك يا عزيزى فرانكنشتين ؟ . يخيل الى انك مريض او انك لم تنم منذ عهد بعيد ؟ ! .

— هو كذلك يا صاحبى فقد كان لدى عمل هام سلبنى الراحة والهدوء ، كما سلب عينى النوم مدة طويلة ، وآمل مخلصا ان اكون قد انتهيت منه الان .

بلغنا البيت اخيرا فاجتزنا الفناء ، ولكنى ما كدت اضع يدى على « اكرة » الباب حتى سرت فى جسدى رعدة شديدة .

ذلك اننى تذكرت المخلوق المخيف ، وسألت نفسى : ترى ماذا يكون شعور كليرفال عندما تقع عيناه عليه ؟ !

وجمعت اطراف شجاعتى ودفعت الباب فى شدة فاصطفق بالحائط فى صوت داو مزعج ، وتركت صديقى فى الردهة ، ثم جعلت اطوف بحجر البيت باحثا منقبا ، ولكنى لم اعثر للمخلوق على اثر فمرتنى موجة طاغية من الفرح جعلتنى اصفق واغنى كالطفل الصغير واقفز

على المقاعد والمناضد وانا اتهته كالمجنون .

والظاهر ان صديقى نسب ابتهاجى الى مجيئه مراح يضحك معى ، غير انه ما كاد يرى البريق الغريب الذى ينبعث من عينى حتى كف عن الضحك فجاة وراح يسألنى فى اهتمام : عزيزى فيكتور ، ماذا حدث بحق السماء ؟ لا تضحك هكذا . انك ما زلت مريضا .

وخيل الى ان المخلوق الهائل ماثل امامى يمد يده البغيضة الى محاولا ان يجتذبنى فصحت بصديقى وانا اناضل واكافح ذلك الشبح الوهمى : لا تسألنى .. سله هو .. انتذنى منه يا هنرى .. انقذنى بحق السماء .. انه يضيق على الخناق .

ثم احسست بان قواى تنهار وتتبدد ، والاصوات تخفت قليلا حتى تلاشت واظلمت الدنيا فى عينى واسابنى دوار عنيف فسقطت فاقد الرشد .

ولازمت الفراش شهورا طويلة انتابتنى فى خلالها الحمى وكنت ارى دائما المخلوق الهائل ماثلا امام ناظرى بوجهه المتقلص الشاحب وعينيه الزجاجيتين فاصبح به لبيتعد واعود الى التضال معه محاولا ان اتخلص من قبضته ويسمعنى هنرى فيعتقد اننى اهذى من هول الحمى .

وقد عرفت فيما بعد انه تولى السهر على والعناية بى ، كما ابلغ اسرتى نبأ مرضى فلم يستطع والدى الحضور لتقدمه فى السن ولطول المسافة بين البلدين ، وكذلك البرابيث التى لم تستطع ترك اشقائى الصغار دون عناية ، بينما صمم صديقى كليرفال على ان يكون بجانبى حتى ابرأ من سقمى فاعود الى حالتى الطبيعية .

وفى احد الايام احسست ببعض التحسن فقلت لصديقى :

www.liilas.com

ـ عـزيزى كليرفال ما اطيب قلبـك ، انك قضيت شهور الشتاء الى جانبى ابان مرضى .. ليتنى استطيع ان اكافئك .. فقاطعنى فى رفق وحنان :

ـ فى استطاعتك أن تكافأنى بألا تزعج نفسك وتجهدها بالاسراف فى الكلام ، وعندما أجدك أحسن حالا فسوف اتحدث معك فى موضوع ..

فارتعبت !! .. يتحدث معى فى موضوع ؟ ! .. ياالهى ! .. لعله يريد أن يسألنى عن المخلوق المخيف الذى أصبحت أمقت ذكره كما أمقت منظره ؟ ! .. ولاحظ كليرفال قلقى واضطرابى فقال : هدىء روعك ياصديقى فلن اسألك شيئا يزعجك ولكن والدك واليزابيث يتمنيان ان تكتب لهما رسالة بخط يدك وقد بعثت اليك اليزابيث برسالة منذ ايام واعتقد أن حالتك تسمح لك الان بأن تطلع على ما جاء فيها .

ـ ٦ ـ

ومد الى كليرفال الرسالة فتناولتها منه وقرأت :

« عزيزى فيكتور ..

« لقد كنت ترزح تحت عبء المرض الخطير الـذى اصابك فحال بينك وبين الكتابة وانقطعت عنا رسائلك، وبالرغم من ان صديقنا الكريم هنرى يوافينا باخبارك كلما وجد فراغا يسمح له بالكتابة ، الا اننا ما زلنا نشعر بالقلق عليك ، ولو استطعت ان تخـط سـطرا واحدا ببيدك . لهدأ بالنا اننى ارقب البريد كل يوم دون ان يتطرق الملل الى نفسى عسى ان يحمل لى رسـالة منك .

لم يحدث جديد منذ أن غادرتنا، الا ان اسرتنا الصغيرة زادت شخصا .. هل تذكر الفتاة جوستين مورتيز ؟

لا اظنك علمت بانضمامها ..

اتوسل اليك أن تكتب سريعا .. والى اللقاء ..

جنيف فى ١٨ مارس عام ١٧

اليزابيث لافينزا

قرأت الرسالة فى شوق وغمغمت :

ـ اواه يا عزيزتى اليزابيث .. لن اخيب رجاءك ولو كنت على فراش الموت .

وبعد يومين أمكننى ان اغادر البيت .. وكان يتعين على ان ارافق كليرفال الى جامعة انجولستادت لاقدمه الى اساتذتى ولم اكن قد ذهبت اليها بعـد تلك الليلة المشئومة اذ كان مجرد ذكر علم الحياة الطبيعية ورؤية الاجهزة والالات كافيا لان يثير رعبى واشمئزازى . وقد لاحظ هنرى ذلك فأبعد عن نظرى المؤلفات التى كنت ارجع اليها وقت الحاجـة واخفى اجهزتى ، كمـا نقل محتويات غرفة معملى الى مكان آخر .

ذهبنا الى الجامعة فاستقبلنا الاستاذ [والدمان] بحرارة وراح يزجى الى صديقى نبأ نجاحى العظيم فى علم الحياة الطبيعية والكيمياء فاضطربت ظهرا لبطن ، ورأى والدمان ذلك فظن ان اطـراءه اخجلنى ، وغير مجرى الحديث وكذلك فعل الاستاذ كريمب الذى أخذ يروى قصة شـغفى بمؤلفـات [كورنيليوس اجريبا] وغيره ، وايمانى بهم كايمانى بالانجيل ، ثم لاحظ امتقاع وجهى وشحوبه فقال :

ها .. ها .. ان مستر فرانكنشتين شديد التواضع . والتواضع صفه تلازم شباب هذا الجيل ، ولكنها لاتلبث ان تزول . فقد كنت وانا صغير ...

ثم مضى يتكلم عن نفسه وينسى موضوع الحديث .

ولم يكن كليرفال يميل الى العلوم الطبيعية ، وكان

www.liilas.com

كل اهتمامه منصبا على الاداب ، فهو لم يذهب الى جامعة انجولستادت الا ليعد نفسه ليكون استاذا فى اللغات الشرقية وخاصة اللغة العبرية والفارسية والساساتية .. والواقع انى ندمت اشد الندم لأننى اهملت دراسة الاداب الشرقية التى تعبر فى اخلاص عن المشاعر والاحساسات المختلفة واهتممت بدراسة العلوم التى ساقتنى الى الخراب رويدا .

ومضت الايام بعد ذلك فعاودتنى الصحة وتحدد موعد عودتى الى جنيف فى اواخر الخريف نظرا لوعورة الطريق واضطراب الجو وسقوط الجليد .

— ٧ —

عدت وصديقى هنرى فى أحد الايام الى بيتى فاذا برسالة من ابى يقول فيها :

« عزيزى فيكتور . . .

لاشك انك كنت تنتظر هذه الرسالة وانت على أحر من الجمر لتعرف اليوم الذى حددته لحضورك عندنا وكان فى عزمى ان انبئك بالموعد فى كلمات معدودة ولكن حدث ما لم يكن فى الحسبان فلم تكتف الاقدار بما رمتنا به من نكبات . فأصابتنا من جديد بشر ما تصيب به انسانا .. ولولا بقية من الايمان فى نفوسنا لكفرنا بالارض والسماء .

لعلك كنتتتوقع ان ترى وجوها فرحة منهللة تنتظرك، انتظار العطشان جرعة الماء البارد . ولاشك انك ستدهش متى رأيت عوض ذلك وجوها كئيبة وعيونا دامعة وقلوبا عصرها الحزن وادماها الالم والشقاء .

ماذا اقول ياولدى وكيف اسوق اليك الخبر المحزن ،

الذى جعل الحياة تبدو فى اعيننا كئيبة قاتمة حقيرة آثمة كقبر فاغرفاه ياخذ ولا يعطى !

لقد مات اخوك ويليام ! . . عصف الموت بهذه الزهرة اليانعة التى كانت تعبق البيت بعبيرها فاذبلها وبددها ولبثه مع ذلك مات موتة طبيعية . . .

انه مات مقتولا يافكتور ! ذلك الطفل الذى كانت بسمته النقية قبسا ينير لنا مسالك الحياة المظلمة الكئيبة

لن احاول تعزيتك يا ولدى فالخطب أجل من ان ينفع فيه العزاء .. وسأسرد لك الظروف التى احاطت بمصرعه فى كلمات قلائل :

كان ذلك فى يوم الخميس الماضى — السابع من شهر مايو — وقد خرجت انا واليزابيث واخوالك لنتنزه قليلا فى غابة « بلينباس » وكان المساء حارا شديد القيظ فتوغلنا قليلا فى الغابة خلافا للعادة .. وعند عودتنا تفقدنا ويليام وارنست فلم نجدهما .. وكانا قد تخلفا عنا قليلا . فتوقفنا عن السير وانتظرنا الى جانب الطريق حتى يقبلا . وبعد لحظة جاء ارنست وحده وسألنا عما اذا كنا رأينا ويليام قائلا انهما كانا يلعبان لعبة « الاستغماية » فانطلق اخوه ليخفى نفسه بعيدا عنه ولكنه بحث عنه دون جدوى فانتظره فى مكانه مدة طويلة ولكنه لم يعد .

فاستولى علينا القلق وانطلقنا نبحث عن ويليام .. حتى هبط الليل فقالت اليزابث انه ربما عاد الى البيت .. ولكنه لم يكن هناك . وعدنا مرة اخرى وفى ايدينا المشاعل وجعلنا ننقب فى كل مكان يحتمل ان يكون قد ضل فيه .. واخيرا عندما سحب الفجر ذيله الشاحب على الكون عثرنا على اخيك .. كان راقدا بين الحشائش فانتابنى جزع شديد ولم أدر ، أميت

www.liilas.com

هذا الملاك الرقيق ام غمرته الاحلام فهو غارق فى النوم !
ولكن واسفا له !
لقد كان صغيرنا العزيز جثة هامدة ..
ذهلت عن كل شيء وأصابني مس من الجنون ولم أدر اقى حلم أنا أم فى يقظة ..
وعلى عنقه الناعم وجدنا بصمات اصابع القـــاتل الاثيم ..
الاثيم .. الذى لا يعرف الرحمة ولا الشفقة .
نقلنا الجثة الى البيت وتم أجد بدا من أنباء اليزابيث بالخبر الاليم فانتابتها غشية طويلة لم تفق منها الا لتلح على فى رؤية الجثة . وما ان رأتهـا وفحصـت العنق حتى راحت تمزق شعرها وتضرب على صدرها صائحة :
ـ يا الهى .. لقد قتل طفلى الحبيب :
ثم عاودها الاغماء ولم تستفق الا بصعوبة فاستأنفت البكاء والنحيب قائلة ان ويليام الح عليها فى مســاء مصرعه ان تلبســه الايقونة الـذهبية التى كانت لامه وفيها صورتها ففعلت .. وعندما فحصت عنقه كانت الايقونة قد سرقت . ولا بد اذن ان سرقتها هى الدافع لارتكاب الجريمة .
تعالى يافيكتور العزيز ففى استطاعتك وحـدك ان ترفه عن اليزابيث فهى دائمـة البكاء والعويل متهمـة نفسها بانها القـاتلة ظلما .. وكلماتهـا تمزق فؤادى واحمد الله يا ولدى لان امك لم تعش لترى مقتل ابنها الاصغر والا لجنت كمدا وحزنا .. تعـال يا ابنى ولا تحمل فى قلبك بغضا للقاتل . بل حنانا ورحمة تسكبها علينا لتعيد الى نفوسنا الجزعة الاطمئنان والهدوء ..
عد يافيكتور الى بيت الاحزان لتمسح بيدك الرقيقـة

الدموع والاشجان » .
ابوك المحزون
الفونس فرانكنشتاين
جنيف فى ١٢ ما يو عام ١٧
ودهش كليرفال الذى كان يرقبنى وانا اقرا الرسالة، اذ راى عضلات وجهى تتقلص واصابعى تضطرب . . ورميت الخطاب على المائدة ثم اخفيت وجهى بين كفى ورحت انتحب فى صمت فقال :
ـ ياعزيزى فرانكنشتاين .. رفه عن نفسك وابعد هذه الاحزان التى ما فتئت تسعى اليك منذ ان خلقت .. ماذا حـدث يا صـــديقى .. فاومات اليـه ليقرا الرسالة . وماكاد يفعل حتى انبعثت الدموع من عينيه وقال :
ـ ان هول الخطب يجعل كلمات العزاء لا تجـدى يا صديقى .. وعلام عولت !
ـ عولت على الرحـيل الى جـنيف على الفور . . تعال معى ياهنرى لتامر باعداد الجياد .
وفعل صـديقى ما طلبته منـه فركبت العربة ثـم ودعته .
بلغت لوزان فقضيت فيها يومين ثم استأنفت السير الى جنيف وكان الطريق اليها يحاذى شاطىء البحيرة فرحت القى النظر على السهول الخضراء الممتدة .
وعندما بلغت حدود جنيف كان الليل قد نشر اجنحته الثقيلة على الكون فلم استطع مواصلة السير نظرا لان ابواب المدينة كانت قد أغلقت فاضطررت الى قضـاء الليلة فى قرية « سيشرون » التى تبعد بنحو نصـف فرسخ عن جنيف ..
ولما كان الجو حارا لا يغرى على النوم فقـد عولت

www.liilas.com

على ان القى نظرة على المكان الذى صرع فيه اخ
وبلبام .

ولم يكن فى استطاعتى ان اجتاز طرق المدينة فى من
هذه الساعة من الليل ، فلم اجد مندوحة من ان اخترق
البحيرة على ظهر قارب ينقلنى الى الناحية الاخرى
حيث غابة « بلينياس » ولكنى ما كدت اتقدم بالقار
قليلا حتى هبت الزوبعة من كل مكان تخبط بيدها ع
اوراق الاشجار فتطير بها كل مطار ودوت جوانب الا
وتعقعت قبة السماء ثم اقبل المطر يمزق قطع السحا
ويفتح لنفسه وللبروق طريقا فى خلالها .. فسالت
الاودية والارجاء وامتلات الاخاديد والاغوار وكانما
حنون فى السماء قد الم بخطبى فابتأس لى ، وبعث
عينيه ما يحاكى ادمعى عزة وسخاء !

وايقظت ثورة الطبيعة احزان نفسى وشجونها فهبط
من القارب ورحت اخترق الغابة صائحا : وبلبام .
يا ملاكى الصغير .. اهذه جنازتك ؟ ! ام ان ملائ
السماء تتناوح لفقدك وتنتحب لموتك ..

وما كدت انتهى من كلمانى حتى سمعت هم
بالقرب منى ووقع اقدام يقترب شيئا فشيئا فتسمر
فى مكانى انصت للصوت واتبين مصدره .. بينما كف
الطبيعة عن انغامها الملتاعة لحظة رايت فيها شبح
هائلا يدب فى خطوات وئيدة وعاد البرق يلقى بضو
على هذا الشبح فيغمره .

تبينته جيدا بهيكله الضخم وهيئته البشعة فجحظ
عيناى وانتفض شعر راسى ومشى الرعب فى قلبى .
كان المسخ الذى يدين لى بالحياة .. كان المخلوق الذ
بعثته . ونفخت فيه من روحى .

ماذا اتى به الى هنا ياترى .. الا يكون هو الذى
قتل اخى .. ما كاد هذا الشك يخطر على ذهنى حتى
اضحى يقينا .. فاصطكت اسنانى وسرت رعدة قوية
فى جسدى واحسست بما يشبه الاغماء .. واعتمدت
على دوحة كبيرة فاخفيت نفسى وراءها حتى مر المسخ
فى جوف الظلام .. من من البشر يجرؤ على قتل طفل
غرير الا هو ! انه القاتل .. لم اشك فى ذلك فجال فى
ذهنى ان اتبعه ولكن بعد فوات الوقت اذ ما ان ومض
البرق مرة اخرى حتى رايته يتسلق قمة « مونت
ساليف » فى خفة القرد ثم ما لبث ان اختفى وراءها .
ووقفت لحظة دون حراك دون ان احس بالمطر وهو يتساقط
على راسى ورحت استعرض ما حدث منذ ان التحقت
بجامعة انجولستادت الى ان خلقت هذا المسخ .. كان
قد مضى على الليلة الهائلة التى فتح فيها عينيه على
الضوء سنتان .. وها هى ذى اول جريمة يقترفها ..
فيقتل اخى وهكذا يجازى العبد خالقه .. ينعم عليه
بنعمة الحياة فيشهر فى وجهه سلاح الجريمة
والعدوان .. ويفجعه فى اعز الناس لديه .

مضى الليل وتبلج ضوء الفجر فسرت فى خطوات
مضطربة نحو المدينة وكانت قد فتحت ابوابها وقصدت
بيت ابى عازما ان ادلى اليه بشخصية القاتل ولكنى
عدت فوجدت نفسى مشتركا فى الجريمة .. الست
انا الذى بث الحياة فى القاتل !

زد على ذلك انه لن يصدق مخلوق قصتى حتى ابى
.. فلاحفظن السر ولاحبسنه الى ان يشاء الله الذى
كفرت بنعمته كما كفر بى عبدى .

وبلغت البيت فى الساعة الخامسة صباحا فلذت

www.liilas.com

بقاعة المكتب بعد ان طلبت من الخدم الا يزعجوا احدا من رقادة .. وكان اخي ايرنست أول من استيقظ فخف مرحبا وقد اختلط عليه كل شيء فهو يضطرب بين الدمع والابتسام وهو ينسى انه فقد اخاه ويليام ولا يذكر الا اخاه الماثل امامه فيتعلق بي ويمسح على يدي ويضمني الى صدره ويغمرني بقبلاته ، التي بدت كالوابل الهتون .

وعندما سألته عن ابي قال انه اصبح حطاما باليا يستدر الشفقة واللوعة ، واستطرد :

ـ واما اليزابيث فهي احوجنا الى العزاء وهي تدين نفسها وتتهمها بانها السبب في مقتل ويليام . ولكن منذ أن اكتشف القاتل ..

ـ اكتشف القاتل ؟ ! .. يا الهي .. وكيف ذلك . منذا الذي جرؤ على القبض عليه .. لقد رايته بنفسي امس وكان حرا طليقا .

فدهش اخي وقال :

ـ لا ادري عمن تتحدث ولكن ما من أحد كان يتوقع ذلك وحتى اليزابيث لا تزال غير مصدقة ولها العذر فهل هناك من يصدق ان جوستين موريتز تقوم على ارتكاب هذه الجريمة الشنعاء ؟ !

ـ جوستين موريتز .. باللفتاة المسكينة . هم قد اتهموها اذن ؟ ولكنهم على خطأ مبين . وكل شخص يعرف ذلك ويجزم ببراءتها .

ـ هكذا كان اول الامر ولكن الظروف والقرائن التي احاطت بها وسلوكها في ليلة الجريمة محت كل شك .. وهي سوف تحاكم اليوم .

قال ذلك ثم سرد على قصتها قائلا انها في صباح اليوم التالي لمقتل ويليام مرضت جوستين مرضا

ارقدها على الفراش عدة ايام وحدث في تلك المدة ان كان احد الخدم يفتش ثيابها التي كانت ترتديها في ليلة الجريمة فوجد الايقونة الذهبية التي تحمل صورة امنا .. وتهامس الخدم فيما بينهم ودون ان يخطروا احدا من الاسرة انطلقوا الى حاكم المدينة وادلوا اليه باكتشافهم فاصدر امره بالقبض عليها .

ـ أنتم مخطئون جميعا لانها بريئة وليس أدل على ذلك من أنني عرفت القاتل الحقيقي . .

دخل ابي في تلك اللحظة وحاول ان يستقبلني بابتسامة تنم عن ابتهاجه ولكنها سرعان ما تلاشت وقال ايرنست :

ـ ابي .. ان فيكتور يقول انه يعرف القاتل . .

فهز ابي راسه الاشيب في حزن وقال :

ـ ونحن نعرفه ايضا .. وهذا ما يمزق قلوبنا ويدميها .

فقلت شارحا :

ـ ابي .. انكم على خطأ مبين .. فجوستين بريئة مما تعتقدون .

ـ لو كانت كذلك فليغفر الله لمن ظلمها وهي سوف تحاكم اليوم وآمل ان تبرأ ساحتها وتعود بين احضاننا معززة مكرمة .

لم تكن قصتي من النوع الذي يمكن سرده او اعلانه على الملأ ولو فعلت لبثثت الرعب في اشد القلوب جراة ولاتهمت بالجنون .. فهل هناك من يعتقد غيري ـ بانني نازعت الله عز وجل في قدرته واستطعت ان اصنع مخلوقا ؟

وجاءت بعد ذلك اليزابيث فاستقبلتني في عطف وحنان .

www.liilas.com

- ٨ -

حلت الساعة الحادية عشرة وهى موعد ابتداء المحاكمة .. واضطر ابى وباقى افراد الاسرة الى الذهاب ليدلوا بشهادتهم فرافقتهم الى هناك .

ودلفت جوستين بعد لحظة الى القاعة وهى فى ثياب الحداد بوجهها الصادر الحزين ، ومشيتها الوئيدة الخابية ، وراحت تجيل بصرها حولها حتى اذا وقعت عيناها علينا انبثقت منها الدموع .

وبدأت المحاكمة فامتلأت القاعة بالنظارة وجلس القضاة فى مقاعدهم يتكلفون الوقار ويتصنعون الرهبة ثم وقف عضو النيابة يلقى بالباطل فى وجه الحق فى لسان ذرب وجنان مطمئن ومنطق لو قلبته لكان يقينا ولو ادرته لكان شكا ثم جلس فى عزة الظافر وخيلاء الواثق من نفسه .

ودعا كثيرا من الشهود فراحوا يدلون بمختلف الوقائع والوان الاسانيد مما يكفى لادانة عشرة رجال اقوياء لا طفلة مسكينة شاء القدر الظالم ان تتضافر حولها الادلة لتردیها فى هوة الفناء فهى قضت الليلة التى وقعت فيها الجريمة خارج البيت .

وفى الصباح المبكر رأتها احدى جامعات الحطب على مقربة من مسرح الجريمة ، فسألتها عما تفعل هناك فارتج على الفتاة وانعقد لسانها فلم تستطع نطقا ولم يخرج من بين شفتيها الا همهمة لا تعبر عن معنى ، وهى قد عادت الى البيت فى الساعة الثامنة من الصباح التالى مدعية انها قضت تلك الليلة فى البحث عن الطفل الضال سائلة اهل البيت عما اذا كانت قد وصلت اليهم انباء جديدة ، وعندما اطلعوها على جثته سقطت

صريعة نوبات عصبية حادة ألزمتها الفراش عدة ايام .. وعندما جيء بالاقونة الذهبية التى وجدها الخدم فى جيبها ، وعرضت على اليزابيث صرحت بانها احاطت بها عنق الطفل ليلة مصرعه . وطلب من جوستين ان تدافع عن نفسها فاخذت تناضل دموعها وتكبح انفعالها وصاحت فى صوت يفتت الاكباد :

— الله فى عليائه يعلم مدى براءتى مما تتهمون . ولذا ساعتمد عليه وادلى بقصتى وحسبى ان تسألوا عن ماضى مع هؤلاء الذين عشت بين ظهرانيهم حينا من الدهر .

ثم روت قصتها قائلة انها قضت مساء اليوم الذى وقعت فيه الجريمة فى بيت عمتها فى قرية شين ، التى تبعد عن جنيف بنحو فرسخ ، وعند عودتها حوالى الساعة التاسعة مساء قابلت رجلا سألها عما اذا كانت قد عثرت على الطفل المفقود ففزعت لذلك النبأ وراحت تنقب عنه فى كل مكان ساعات طويلة اقفلت اثناءها ابواب جنيف ، فاضطرت الى قضاء باقى الليل فى « جرن » تابع لكوخ تعرف اصحابه .. ولكنها لم ترد ازعاجهم .

ومضت عليها ساعات وهى ساهدة ترقب الطريق بعين لا تغفل حتى اذا اقترب الفجر غفلت بضع دقائق قامت بعدها على صوت وقع اقدام تمر بجانبها ، وغادرت مخبأها ثم حدثتها نفسها بان تعيد البحث عن الطفل فقد تعثر عليه .. فهى لو كانت ذهبت الى مسرح الجريمة فذلك دون علمها ، كما ان ترددها عند سؤال جامعة الحطب ليس غريبا مادامت قد قضت ليلة ساهرة لم يطف الكرى بعينيها الا ثوان معدودات كما ان المصير المؤلم الذى انتهت به حياة الطفل كان

www.liilas.com

لا يزال مجهولا وقتئذ واما عن الايقونة التى وجدت فى جيبها فقد قالت :

ـ اعرف تماما خطورة موقفى ولكنى لا ادرى شيئا عنها مطلقا وقد دست فى جيبى دون علمى .. كما انه ليس لى من الاعداء من يودون الحاق الاذى بى .. وطالما سالت نفسى .. هل وضعها القاتل فى جيبى خفية ؟!

ولكن اذا كان الامر كذلك فلم اذن كلف نفسه مشقة سرقتها وقتل الروح البريئة التى تحملها ! .. لا اجد امامى ثغرة انفذ منها ، فالقرائن كلها ضدى والدلائل تعمل على هدمى والقضاء على وكل ما ارجوه ان تتساءلوا عن سلوكى ، ممن يعرفوننى فاذا كانت تظللها ريبة فقد ادنت وافعلوا فى ما شئتم ..

واراد القاضى ان يحقق امنيتها فاستدعى كثيرا من الشهود الذين يعرفونها منذ اعوام وكانت اجوبتهم جميعا فى صالحها كما رات اليزابيث ان تدلى باخر سهم لانقاذ الفتاة البائسة ، وقالت :

ـ انني يا سادة ابنة عم الطفل الذى قتل اوبالاحرى اخته ، فقد تبنانى ابواه منذ عهد بعيد وما دفعنى الى الحديث الا اننى رايت حياة بريئة معلقة بين ايديكم شاء القدر الغاشم ان تتضافر حولها القرائن لتلقى بها فى هاوية التهلكة .. اننى ادرى من كل شخص آخر باخلاق هذه الفتاة فقد عشت معها تحت سقف واحد مدة عامين فعهدتها فى كل هذه الاعوام تميل الى الخير وتصدف عن الشر ..

وكانت تحب الطفل القتيل اكثر من نفسها .. فكيف بالله تجرؤ على قتله ؟! وسرت ضجة بين النظارة .

واستغرقت انا فى التفكير .. اننى واثق من ان

المخلوق المخيف هو الذى قضى على اخى .. ولكن هل هو كذلك الذى الصق هذه التهمة الرهيبة بجوستين ؟! اذا كان ذلك فان وجوده خطر ماحق يهدد الانسانية جمعاء !

ومرت فترة صمت عميق تحركت بعدها رؤوس المحلفين وتمايلت وتهامست وكانها ضاقت بالناس فدلفت الى الخلوة تدبر امرها .. ثم ما لبثت ان عادت مضطربة الجبين ، متكلفة الرزانة والثبات فاعلنت وسط الصمت الموحش الذى تواثبت فيه القلوب قرارها فى مصير الفتاة . وهو الاعدام !

وما كاد القاضى ينطق بحكمه الرهيب حتى اضطربت القاعة ومشت القلوب فى الصدور ، وتعلقت الانفاس وشخصت الابصار وملكنى الفزع فكدت اصيح ، اسالهم الفداء عن تلك البائسة التى اعلم والله يعلم والناس جميعا يعلمون انها بريئة لم تتلوث يداها يوما بدم ، ولم يطوف الشر لحظة بخيالها التقى .

وفى اليوم التالى .. نفذ حكم الاعدام فى جوستين .. ولن استطيع ما حييت وصف الشعور الذى تملكنى وقتئذ فقد هجرت الدار وانطلقت اذرع الارض سادرا محزونا .

وقادتنى قدماى اخيرا الى حيث دفن اول ضحيتين من ضحايا عملى الذى نازعت به الله عز وجل قدرته على احياء الموتى ، وهناك بكيت ما شاء الله ان ابكى ..

ـ ٩ ـ

اخذ الارق يستبد بى سريعا حتى اضمحلت قوتى الجسمانية والعقلية فانتابنى الهزال وبرمت بكل شىء حولى .. حتى بنفسى .. ورق احساسى حتى اصبح

www.lilas.com

يؤذيني كل صوت مهما خفت وحتى اصبحت اقيم ليلى ونهارى منهار الاعصاب لا استقر ولا اغفو ولحظ ابى شحوبى وامتقاع لونى فقال لى ذات يوم :

ــ او تظن يا فكتور انى لا اعانى ما تعانيه ؟ !

لن يحب انسان ولده كما احببت اخاك ..

وطفرت الدموع من مآقيه واستطرد :

ــ اى شىء فى أيدينا نحن البشر نحمى به انفسنا من قوى الغيب الخفية ؟ ! ..

اننا لانكاد نعرف من أين جئنا ولا الى أين نمضى .. نحن لا ندرى من امر دنيانا شيئا سوى اننا نضطرب فى جوها كما تضطرب الشهب فى آفاق الظلام .

فارسلت الى ابى نظرة تفيض بالشك والالحاد ثم حرصت بعد ذلك على ان اتباعد عنه على قدر الامكان . .

كنا فى ذلك الوقت قد انتقلنا الى بيتنا القائم فى « سلبريف » وكان هذا ما تمنيته وارتحت اليه لان ابواب جنيف تقفل عادة فى الساعة العاشرة من مساء كل يوم فكان يحتم على ان اعود الى البيت قبل ذلك الموعد . اما فى الريف فقد شعرت بشىء من الحرية اذ كنت انتظر حتى اذا آوت الاسرة الى مضاجعها ركبت القارب وقضيت الساعات الطويلة فى البحيرة تدفع بى الرياح الى كل مكان على حين اسلم نفسى للخواطر تعصف بى . وكم من مرة فكرت فى ان اتخلص من تلك الحياة الموبوءة وانتزع نفسى من غمارها فاتعجل الموت بالقاء نفسى فى البحيرة ولكنى اعود فاجد انه يجب ان اعيش من اجل اليزابيث . فان آلامها خليقة بان تزداد ما دامت حياتها مرتبطة بحياتى .. وينبغى أن أعيش ايضا من اجل ابى وقد اصبح على حافة القبر ومن اجل

اخى ايرنست وهو من بقى لنا من حطام الدنيا . اتراك المسيخ الذى خلقته يعبث بهم كما شاء فيصرعهم الواحد تلو الآخر ؟ !

كنت موقنا او قل انه كان يخالجنى شعور باطنى بان اعمال ذلك الوحش الممقوت لم تنته بعد ، وانه سوف يرتكب جرائم اخرى من اجل ذلك استقر رايى على ان اعيش حتى امحق ذلك العدو . فانى ما فكرت يوما فى ذلك الوحش الا احسست باللهب ينبعث من عينى ، وبالرغبة فى الانتقام تضطرم فى نفسى .

ــ ١٠ ــ

فى احد الايام رحت اجوب الغابات والاحراش واقطع الوديان والتلال وقد بدت الطبيعة فى ابدع ثوب . فالخضرة تكسو الارض وتتوج هامات الجبال والمطر يهبط فى رذاذ خفيف على اوراق الاشجار فيصقلها .

احسست اذ ذاك بما يشبه الفرح يغمر قلبى الحزين . . وفيما كنت انا فى ذلك راعنى ان ارى شخصا مقبلا على البعد وهو يسير فى خطوات غير عادية اذ كان يتخطى الثلوج التى يجب ان يسير عليها فى حذر ــ فى جراة تثير الدهشة .. اقترب الرجل منى فغشيت عينى سحابة كثيفة واحسست بقواى تخور شيئا فشيئا كاننى اوشكت ان افقد الوعى .. ولكنى تماسكت لارى الشبح يسرع الخطى نحوى ..

تبينته بعد قليل . فاذا هو المسخ الذى وهبته نعمة الحياة .. ارتعشت من فرط الغضب وصحت به :

ــ ايها الشيطان المريد .. اتجرؤ على الاقتراب منى ، الا تخشى الانتقام الرهيب الذى اعددته لك ؟ اغرب عن

www.liilas.com

وجهى ، فما انت الا حشرة قذرة كفرت بنعمتى وجحدت صنعى ، لا لذنب الا انها مدينة لى بالحياة .. الم يكفك ما اقدمت عليه من جرائم تقشعر لهولها الابدان !

فقال المسخ :

ـ لقد توقعت منك ان تلقانى بهذا .. الناس جميعا يكرهوننى ويحقدون على .. حتى انت يا خالقى .. حتى انت يا من نفخت فى من روحك تتمنى الان قتلى والقضاء على .. اهذا هو واجب الخالق نحو مخلوقه ! .. على الخالق ان يمهد لعبده سبل الحياة السعيدة .. عليه ان يشمله بعطفه وعنايته ويظلله بحفاته ورحمته .. سوف املى عليك شروطى .. فان قبلتها سأدع العالم يحيا فى امن وسلام . واذا رفضتها فسأتنكر للانسانية فأهدم ، وادمر ، واضرب ، واسحق .. ولن اترك احدا يمت اليك بصلة الا اوردته موارد الهلاك .

ـ خسئت ايها اللعين . اتكفر بالذى خلقك وفى استطاعته ان يذيقك العذاب الاليم ؟

ولم استطع ان اكبح جماح غضبى فقفزت عليه محاولا خنقه بكلتا يدى ولكنه ابعدنى بلمسة خفيفة وقال :

ـ اهدأ قليلا ولا تدع الغضب يعميك .. واستمع اولا لما اريد ان اقول .. الم اعان ما فيه الكفاية لتزيد بؤسى والامى ان الحياة على الرغم من بؤسها غاية ، ولا اريد ان تفلت منى بهذه السهولة ، ثم تذكر انك خلقتنى واودعتنى قوة تضعف امامها قوتك ، وانا عبدك . لك الامر وعلى الطاعة .

وسكت لحظة ثم عاد يقول منتحبا :

ـ اوه يا فرانكنشتاين .. كن رؤوفا بى . ولا تكن قاسيا متحجر القلب .. لقد خلقتنى وحيدا لا رفيق لى

ولا انيس اسكن اليه واطمئن الى احضانه .. وكفى ما رأيت من عذاب ، وصحت فيه قائلا :

ـ اغرب عن وجهى .. فلا اريد ان اسمع صوتك القبيح .. لقد انقطع ما بيننا واصبحنا اعداء الداء .. اذهب والا دعنا نمتحن قوتنا حتى يسقط احدنا فى الميدان .

ـ كيف استطيع ان الين قلبك ! اضرع اليك ان ترحمنى وصدقنى يا فرانكنشتاين اننى كنت دائما محبا للخير .. وما جنحت الى الشر الا عندما وجدت البشر يحقدون على ويفزعون منى ويحاولون تحطيمى وهلاكى . دون ان ارتكب اثما او وزرا .. فمنذ ان خلقتنى ودفعت بى الى ظلمات هذا العالم ، وانا احيا حياة محزنة كلها آلام واوهام فاننى انطلق كالشبح الوذ بالجبال واعيش بين المغاور والتلال .

انا بائس وينبغى ان احملك بل احمل العالم كله تبعة بؤسى .. ولكن مازال فى استطاعتك انت وحدك ان تنقذ البشرية من اهوالى .. فاستمع الى قصتى ولك بعد ذلك ان تصدر حكمك على .. اصغ الى يا فرانكنشتاين .. انك تتهمنى باننى قاتل ولهذا تريد ان تحطم مخلوقك الذى صنعته بيديك .. ومع ذلك فلن استغفرك ولن اطلب اليك الا ان تصغى الى ما اسرده عليك ولك بعد ذلك ان تبقينى او تهلكنى فانت خالقى وانا عبدك .

ـ لتلعن السماء اليوم الذى فتحت فيه عينيك على الضوء ولتلعن الارض البدين الذين خلقتك .. لقد جعلت حياتى جحيما لا يطاق ، اغرب عن وجهى ولا تدع عيناى تقعان على هيئتك البشعة بعد الان .

فقال المسخ وهو يضع يده المقيتة على عينى :

www.lilas.com

ـ سافعل يا خالقي .. فلن تسقط عيناك على .

فلطمت يده بشدة وابعدتها فاستطرد :

ـ ما فعلت ذلك الا لاحول بينك وبين النظر الى الهيئة التى تنفر منها وتمقتها . ومع ذلك فسوف تستمع الى قصتى فهى طويلة ولا تخلو من غرابة ولكن المكان هنا لا يليق لسردها فلتأت معى الى كهفى فوق الجبل وبكلمة منك بعد ذلك سيتقرر مصيرى فاما احيا حياة مستقيمة كلها خير وكلها حمد وشكر لك واما انتكر لكل شىء فاكفر بك وبنعمتك واعيث فى الارض فسادا وانقلب شرا على العالمين .

وما ان قال ذلك حتى اخذ بيدى وسار وهو يسحبنى وراءه ليرغمنى على سماع قصته فسرت خلفه فى صمت ولاول مرة شعرت بواجبات الخالق نحو مخلوقه . وهو انه كان ينبغى ان اهبه السعادة وارشده الى طريق الصواب قبل ان يشكو الى ما يعانى من بؤس وعذاب .

وعبرنا السهول الثلجية ثم تسلقنا الجبل الذى اشار اليه وكان الهواء يهب على وجهى باردا يكاد يهرأه واخيرا دلفنا الى الكهف فاشعل المسخ كوما من الحطب الجاف واغصان الشجر وجلس الى جانبى وراح يروى قصته .

ـ ١١ ـ

لعل من الصعوبة ان اتذكر اول نشأتى .. فكل ما اذكره هو ان حواسى نجزات على اعضائى فى وقت واحد من نظر وشعور وسمع وشم ثم انقضت مدة طويلة قبل ان ادرك المناسبات التى يجب ان استغل فيها كل حاسة من هذه الحواس . فمثلا عندما فتحت عينى آلمهما ضوء باهر اضطرنى الى اطباقهما ولكن لم يلبث

الظلام ان هايقنى ففتحت عينى مرة اخرى وعاد الضوء ينسكب من جديد فيهما .. وعندما سرت لاول مرة رحت اصطدم بقطع الاثاث التى حولى . اما الآن فانا اتحرك كما اريد فى حرية مطلقة ودون ان اخشى عقبة او عثرة بجب تجنبها .. وعندما احسست بحرارة الشمس بحثت عن مكان استظل فيه وكان ذلك فى غابة «انجولستانت» حيث استلقيت الى جانب مجرى ماء لاستريح مما نالنى من تعب حتى اذا شعرت بالجوع والعطش اكلت بعض الاعشاب ثم انحنيت على الماء ورويت منه ظمئى .. وبعدئذ عدت الى رقادى وسرعان ما غلبنى النوم .

وعندما استيقظت كان الظلام قد انتشر ببرده وصقيعه، فسرت الرعدة فى بدنى وتملكنى الخوف لوجودى وحيدا فى تلك البقعة القفرة ، وكنت قد ظننت ان اغادر بيتك قد دفعتنى الغريزة الى ان اغطى جسمى ببعض الثياب . ولكنها لم تدفع الندى عن جسمى .. كنت فقيرا شريدا .. بائسا لا حول لى ولا قوة . وقد عرفت ذلك بغريزتى فبكيت .

واتفق ذات يوم .. وكان شديد البرودة . ان عثرت على نار مشتعلة كان قد تركها احد الحطابين فجلست عليها .. وعندما احسست بالحرارة تتبعثمنها وتدفئنى سررت سرورا عظيما ومددت يدى لامسكها ولكنى رددتها الى جانبى وانا اصيح صيحة داوية . فاحست نفسى بالغرابة .. امن شىء واحد تنبعث اللذة كما ينبعث الالم ؟ !

وجعلت افحص المادة التى تكونت منها النار فراعنى ان اجدها من الخشب .. هرعت اجمع بعض الاغصان والقيتها فى النار وكانت مبتلة فلم تشتعل .. انتابنى

www.liilas.com

الحزن وتبعت انظر الى النار وهى تسرى من غصن لاخر دون ان تؤثر فى اغصانى .. وبعد لحظة رايت اغصانى المبللة تجف ثم تحترق .. اقلقنى ذلك ولكنى بعد ان فحصت باقى الاغصان ولمستها ادركت السبب فرحت اجمع كمية كبيرة من الاغصان لكى اجففها واستعملها للوقود .

وعندما جاء الليل وشعرت بحاجتى الى النوم خشيت ان ينفذ الوقود فتطفأ النار دون ان ادرى فغطيتها بطبقة كثيفة من الاغصان الرطبة واوراق الشجر ثم نمت نوما عميقا .

- ١٢ -

استيقظت مع الصباح فكان اول ما فعلت ان رفعت اوراق الشجر عن النار لارى ما حل بها ، ثم هبتنسمة رقيقة احيت لهيبها فقبعت بجانبها طول اليوم امدها بالوقود كلما اوشكت ان تخبو وعندما هبط الليل مرة اخرى لحظت ظاهرة جديدة .. وهى انها تضيء الى جانب التدفئة كما انني استغللت حرارتها فى طهو الطعام. وذلك اننى كنت قد عثرت على فضلات من طعام الحطابين بجانبها ، فاعجبنى طهوه وبدا لى انه اذ كثيرا من العشب الذى اقتات به .. حاولت ان اطهو العشب واوراق الشجر ولكننى عرفت انه يفسد بوضعه على النار بينما وجدت ان بعض الجذور ، وبعض ثمرات الاشجار الاخرى يمكن ان تطهى دون ان تفسد .

وبدا الطعام ينفد فكنت اقضى اليوم كله ابحث عما اقيم به اودى دون جدوى . فحولت علي ان اهجر مكانى

وابحث عن مكان آخر تتوافر فيه اسباب العيش .. وكنت مكرها على ان اضحى بالنار التى عثرت عليها صدفة .. وليس فى مقدورى اشعالها من جديد .

وكانت الساعة السابعة صباحا عندما رحت ابحث عن طعام وملجأ الوذ به فى اطراف تلك القرية .. وبعد تجوال طويل لمحت كوخا صغيرا يقع على ربوة عالية ، لم اشك فى انه لاحد رعاة الماشية ، كان هذا المنظر جديدا بالنسبة لى ، فرحت افحص البناء مشدوها حتى عثرت على شق فيه فدلفت منه ..

وهناك رايت رجلا كبير السن يطهو طعام افطاره على النار وما ان احس بى عند دخولى ووقعت انظاره على حتى دوى صوته فى صرخة هائلة .. وخرج من الكوخ يعدو وعبر الحقول .. كانت هيئته غريبة لدى كما كان هروبه .. ولكنى لم افكر فى ذلك كثيرا بل اخذت افحص الكوخ من الداخل . لم يكن فى استطاعة المطر او الصقيع النفاذ اليه . فالارض جافة وكذا الجدران .. انه خير وقاء لمن هو مثلى .

وما ان امتلات معدتى حتى احسست بحاجة قصوى الى النوم فاستلقيت على كومة من القش وغرقت فى سبات عميق واستيقظت فى الظهر فوجدت الشمس تغمر الكون باشعتها الدافئة وعولت على ان استانف تجوالى فوضعت ما تبقى من طعام الافطار فى كيس وجدته فى احد الاركان وخرجت من الكوخ .

واخذت اعبر الحقول المترامية ساعات طويلة حتى بلغت قرية اخرى وقد اوشكت الشمس على المغيب.. وانتابنى الفرح والدهشة معا عندما رايتها مكتظة باكواخ جميلة المنظر .

www.liilas.com

وكان ابدعها تحيط به حديقة مزروعة بمختلف انواع الخضروات والبقول ، ومما اسال لعابى ، الاطعمة الشهية الموضوعة على حافة النوافذ فعولت على الدخول ولكنى ماكدت اطا بقدمى الباب حتى رايت سمات الرعب والفزع ترتسم على وجوه الاطفال فاذا بهم يهرعون الى الداخل يتصايحون وخرجت امراة لترى ما حدث ، فما كادت عيناها تقعان على حتى هوت على الارض وقد اصابها الاغماء .

وما هى الا لحظات حتى رايت اهل القرية يقومون قومة رجل واحد وينقضون على بالحجارة والعصى الغليظة وبعض اسلحة اخرى تقذف من بعد ، مما جعلنى الوذ بالفرار فاختبىء فى « جرن » يقينى من اذاهم .

وكان هذا الجرن متصلا بكوخ نظيف لم احاول دخوله بعد تلك التجارب القاسية التى مرت بى . وكان الجرن مبنيا من الخشب الا انه واطىء السقف ، فكنت اجد مشقة كبيرة فى الوقوف كما كانت ارضيته عارية ولكنها جافة وعلى الرغم من الهواء الذى كان ينفذ من الفجوات التى فى الجدران الا اننى وجدت فيه مخبأ مثاليا يقينى نزول المطر والصقيع .

وعندما تبلج ضوء الفجر زحفت من مخبأى قبل ان يستيقظ احد من اهل الكوخ فيرانى ويعاد تمثيل المأساه من جديد . ولكنى ما كدت اضع قدمى خارجه حتى لمحت شخصا عن بعد فعدت الى مكانى حتى اذا توارى خرجت ثانية .

قضيت الوقت بعدئذ فى اعداد كل ما يلزمنى فى مخبأى ففرشت الارض بعيدان الحطب الجافة وحصلت على كوب للشرب وجدته اصلح من يدى وغائلت القوم وسرقت

رغيفا يسد رمقى وكان هذا المخبأ رغم ما به ، جنة بالنسبة الى الغابة الموحشة التى قضيت فيها ايامى الاولى بين هطول المطر والثلوج والبرودة القارصة فعولت على الاقامة فيه حتى يحدث ما يغير عزمى . وتناولت طعام الافطار فى نهم ولذة عندما سمعت وقع اقدام قريبة فقمت ونظرت من ثقب فى الجدار فوجدت مخلوقة صغيرة تحمل على راسها قدرا وتمر امام مخبأى .. كانت فتاة حلوة التقاطيع يبدو فى وجهها الجميل الحزن وبعد ان غابت عن عينى قبعت فى مخبأى ارقب عودتها ، فرجعت بعد نحو ربع ساعة وهى تحمل القدر بعد ان ملاتها باللبن وبينما هى سائرة تنوء بحملها قابلها شاب تلوح فى وجهه شحوبة الالم الدفين فقال لها شيئا ثم رفع القدر ودخل به الكوخ والفتاة فى اثره وبعد لحظة رايت الشاب يخرج ومعه بعض العدد والالات ويعبر الحقول المترامية خلف الكوخ بينما راحت الفتاة تعنى بشئون البيت فى الداخل تارة وفى الفناء تارة اخرى .

عندما فحصت مخبأى وجدت ان احدى نوافذ الكوخ تشغل جانبا منه ولكنها سدت ببعض الواح من الخشب غير انه بقيت فجوة بينها تكفى لاختلاس النظر منها الى ما يحدث فى الداخل ومن هذه الفجوة رايت الغرفة .. كانت صغيرة ونظيفة ولكنها قليلة الاثاث وفى احد اركانها مدفأة يصطلى بجانبها رجل كهل واضعا راسه بين كفيه فى كآبة وحزن كما رايت الفتاة بعد ان انتهت من نفض الغبار عن الاثاث تفتح درجا وتخرج منه آلة كالعصا تقدمها الى الرجل العجوز فيضع طرفها فى فمه فاذا بها تخرج صوتا حنونا عذبا والحانا ساحرة

www.lilas.com

مسترخية .

كان هذا المنظر محببا الى نفسي .. انا المحطم الشمس الذى لم تتفتح عيناه الا على البؤس والشقاء .

وكما ان الطيبة التى تبدو على وجه العجوز دفعتنى الى احترامه فان وداعة الفتاة وجمالها سلبا لبى .

ووقع الرجل بنايه انغاما اسالت الدمع من عينى الفتاة . ولكن الرجل لم يشعر ببكائها فى اول الامر حتى اذا سمع صوت انتحابها غير الايقاع فاذا به يخرج من الناى انغاما حلوة تعيد للفتاة هدوءها ، واذ بها تجثو عند اقدامه فيلقى آلته ويرفعها من يدها وهو يبتسم ابتسامة تفيض بالحنان والرحمة .

كانت حياة غريبة تلك التى يعيشان فى غمرتها فهى مزيج من الحزن والفرح ، من الدموع والابتسام ، من الحرمان واليسر .

عواطف متضاربة لم يستطع عقلى ادراكها فانسحبت فى هدوء من النافذة وقد غشيني انفعال شديد .

— ١٣ —

سأسرد الان اهم ما فى قصتى المروعة وسأسرد عليك الحوادث التى كان لها تاثير عظيم فى نفسى والتى دفعتنى لان اكون كما انا الان ..

تقدم الربيع فحسن الجو وصفت السماء ودهشت عندما رايت الصحارى المقفرة والبيد القاحلة تكسوها حلة سندسية مزدانة بانواع الورود والازاهير العبقة ولاول مرة منذ ان خلقت احسست بشعور من اللذة يغمرنى ويطغى على وجدانى من اجل هذه الجنة الفيحاء التى تشملنى وتقع عليها عيناى كلما تأملت ما حولى ..

وفى يوم من هذه الايام الباسمة كان اهل الكوخ يستريحون من عناء العمل ، فالرجل يوقع على نايه والفتى وصاحبته يرهفان السمع الى النغم الحنون واذ ذاك سمعت طرقة على الباب ..

دهش القوم وعلا وجوههم الوجوم فما عهدوا من قبل احدا يجشم نفسه مشقة السؤال عنهم ..

وكان الطارىء احد الادلاء جاء وفى رفقته سيدة تمتطى جوادا وترتدى ثوبا قاتما وعلى وجهها نقاب كثيف ..

وفتحت الفتاة — واسمها اجاثا — الباب ونظرت الى الطارق الذى اشار الى السيدة . فالقت اجاثا عليها سؤالا اجابت عنه الزائرة بجملة لم افهمها ، ولكنى سمعتها تردد فى اطوائها اسم (فيليكس) وكان لصوتها رنين موسيقى تشوبه لكنة اجنبية زادت من عذوبته وحلاوته .

وما ان سمع الفتى فيليكس اسمه حتى اسرع الى السيدة التى ما ان راته حتى رفعت النقاب عن وجهها فاذا هو ينكشف عن جمال باهر يفتن الابصار .

ولقد سمعته يطلق عليها « يا اعرابيتى الحبيبة » ولكن الظاهر انها لم تفهم قوله فاكتفت بان ارسلت له بسمة عذبة وهو يعاونها على الهبوط من فوق صهوة الجواد .. وبعد ان صرف الدليل تقدمها الى الكوخ حيث تبادل مع ابيه بضع كلمات جثت على اثرها السيدة امام الرجل وقبلت يده ولكنه رفعها واحتضنها وهو يربت على ظهرها فى حنان .

ولحظت بعد برهة ان السيدة كانت تتحدث بلغة غير اللغة التى يتحدثون بها فكان كلاهما لا يفهم للاخر كلاما فراحوا يتحدثون باشارات لم ادركها ، ولكنى وجدت

www.liilas.com

ان مقدمها جعل الوجوه المكتئبة تطفح بالبشر والسرور اذ كانت تشبه بضوء الشمس عندما يبدد سحب الضباب المتكاثفة .

ولعل فيليكس كان اسعدهم جميعا بقدوم (اعرابيته) الحسناء كما قبلت اجانا يدها واشارت الى اخيها وصاحبته كأنها تريد ان تقول انه كان حزينا دائما حتى مجيئها .

ومضت ساعات وهم فى نعيمهم المقيم الى ان ابدت الزائرة بغير عبارة رغبتها فى ان تتعلم لغتهم ، وعندئذ جالت فى ذهنى خاطرة وهى ان استفيد ايضا من الدرس ..

وقد تلقنت السيدة فى الدرس الاول نحو عشرين كلمة كنت قد فهمت معظمها من قبل .

وعندما اقبل الليل كانت اجانا والاعرابية اول من آوى الى الفراش .. بعد ان قبل فيليكس يد الثانية قائلا : « طاب مساؤك يا حبيبتى سافى » ثم ظل يتحدث مع ابيه بعض الوقت وفهمت من ترديد اسم «سافى» غير مرة ان الاعرابية كانت مدار حديثهما ، وقد حاولت فهم ما يقولان ولكنى فشلت .

وفى صباح اليوم التالى نهض فيليكس الى عمله وقد سرى الدم والحياة فى وجهه بينما جلست اجانا والاعرابية الى قدمى الشيخ الذى اعطى تايه الى سافى فراحت توقع عليه من الانغام ما يستدر الدموع من العيون تارة وما يبعث السرور والغبطة تارة اخرى ثم اطلقت حنجرتها بالغناء فاذا بصوتها يخرج رخيما عذبا كأنه تغريد العندليب .

وبعد ان انتهت سافى من غنائها تناولت اجانا الناى

فوقعت عليه لحنا حزينا اردفته بمقطوعة غنائية ولكن صوتها كان اقل من صوت صاحبتها رقة وعذوبة .

ولاح لى ان الشيخ قد سر فقال كلاما لاجانا فحاولت شرحه للاعرابية لتفهمها انه يعرب عن سروره لسماع موسيقاها ..

ومرت الايام على هذا الحال .. فسافى تحاول دائما ان تبعث الفرح فى قلوب اصحابها وهى فوق ذلك متقدة الذكاء اذ سرعان ما تقدمت تقدما كبيرا فى تعلم لغتهم الى حد اننى اصبحت بعد شهرين قادرا على فهم كل كلمة اسمعها بينما تغير لون الارض غاذا بها تنبت نباتا حسنا فيتضاعف المحصول ، وتتفتح الورود عن اكمامها ، والشمس تلقى حرارتها اللينة الساطعة فى كل شىء فتبعث فيه الحيوية والنشاط ، واصبحت جولاتى فى الغابات محببة الى نفسى رغم تمرسها نظرا لتبكير بزوغ الشمس وعدم مخاطرتى بالخروج فى وضح النهار خشية ان اعامل نفس المعاملة التى استقبلت بها عندما دلفت الى القرية الاولى والتى لا تزال ذكراها فى نفسى .

ولا تحسبنى مبالغا اذا قلت اننى تقدمت فى تعلم لغتهم تقدما يدعو الى الدهشة . بل فقت الاعرابية فى ذكائها .. اضف الى ذلك لكنتها الاجنبية التى كانت تحول بينها وبين النطق احيانا بينما كنت من ناحيتى استطيع نطق اية كلمة دون صعوبة ..

وفى اثناء ذلك ايضا تعلمت الحروف كما كانت تعلمها سافى وقد فتح هذا العلم امام عينى بابا مغلقا رأيت خلفه كل عجيب وغريب ، وكان الكتاب الذى يعلم منه فيليكس فتاته هو الذى القه (فولنى) بعنوان « خراب الدول » ولكنى لم افهم منه الشىء الكثير ، وكذا فيليكس ، لان

www.liilas.com

شرحه لم يكن مسهبا . وقد قال انه اختاره لان مؤلفه زعا فيه منحى المؤلفين الشرقيين ، ومن هذا الكتاب تعلمت تواريخ دول لم تزل موجوده الى الان .كما اعطانى فكرة عن الحكومات الحاضرة والاديان المختلفة التى تعتنقها شتى الشعوب . كما امتزجت دموعى بدموع ساقى عندما سمعت تاريخ الاباطرة الاقدمين والابطال الذين عاشوا فى مختلف العصور .

ولقد بعثت هذه الاقاصيص فى نفسى شعورا غريبا فرحت اسائلها : هل كان لرجال تلك العصور الغابرة هذا الجبروت الهائل قبل أن تطغى عليهم اللذات فتعمى ابصارهم وتقتل هممهم ؟ ! هل كانوا يتمتعون بمثل هذه القوة والسلطان قبل ان تتسكب على نفوسهم نيران الاحقاد والمطامع فيكيدوا لبعضهم البعض ويلحقوا الاذى ببنى جنسهم ؟ !

طالما ساءلت نفسى عن السبب الذى من اجله يقتل الاخ اخاه . .والسبب الذى من اجله سنت الحكومات والهيئات القوانين والشرائع ، ولكنى عندما سمعت اقاصيص الرذيلة واراقة الدماء امسكت عن عجبى وادرت وجهى احتقارا واشمئزازا .

كان كل حديث يتساهمه اهل الكوخ يفتح لعينى شيئا غريبا ، فكنت كلما استمع الى الدرس الذى يلقيه فيليكس على ساقى تزداد معرفتى بالبشر . وعرفت ان هناك قوما يعيشون فى قصور شاهقة ترفرف عليها اجنحة السعادة والثراء ، وعرفت ان هناك قوما آخرين يحيون حياة كلها بأس وكلها ظلام .. عرفت ان هناك طبقة رفعها الغنى الى السماء فهى تستقبل بالرهبة والاحترام . وان هناك طبقة اخرى هوى بها الفقر

الى الحضيض ، فهى لا تستأهل حتى النظر اليها .

طبقت كل هذا على نفسى . وماذا انا ؟ انا مخلوق .. لا ادرى عن نشأتى او عن خالقى شيئا ، ولكنى ادرى اننى فقير منبوذ ، لا املك شيئا ،والى جانب ذلك ايضا، خلقت فى اقبح صورة فلا انا اشبه الرجال ، ولا غير الرجال .. فهل انا مسخ اذن ؟ وصمة قذرة على وجه الارض ، يشيح عند رؤيتى الناس بوجوههم ويفزعون ويهربون ، كلما سقطت انظارهم على كانهم يرون عفريتا من الجن .

لا استطيع وصف الغضب الذى تملكنى وقتئذ ،اهكذا اظل مغمورا فى الغابات والاحراش لا يعرفنى احد ، ولا يشعر بى احد ، ولا يقاسمنى بؤسى احد ؟ !

كنت كلما ازددت علما زدت حزنا وحنقا ، وقد حاولت غير مرة ان اخمد شعورى واكبت احساسى فى قرارة نفسى ، ولكنى عرفت ان ذلك لن يكون الا بالموت ، وهى حالة اخشاها ولا افهمها .

عرفت الفضائل كلها على ايدى اصحاب الكوخ فكففت عن سرقتهم رغم انهم لم يرونى بل وساعدتهم بما فى وسعى فكفيتهم مشقة نقل الاحطاب والاغصان الجافة، ولكنى كنت بعيدا عنهم فانا لا ارى الا من ثقب صغير اختلس منه السمع والنظر . .فيزيد من رغبتى فى ان انضم اليهم واعيش بين ظهرانيهم . اعجبت بكلمات اجانا الوادعة . واحببت ابتسامة ساقى العذبة ، وملت الى طيبة الشيخ وحنانه . ولكن لا الكلمات ولا الابتسامات ولا الحنان كان موجها الى .. يالللحطام التعس !

ومن دروس اخرى تأثرت تأثرا عميقا ، اذ سمعت الفرق بين الجنسين وكيف يولد الطفل وينمو ويترعرع.

www.liilas.com

وكيف يحب الاب ابنه ، وكيف تدال الام طفلها وتحنو عليه ، وعن اى طريق يتسع ذهن الشاب وتنمو معلوماته اذ يتلقاها من ابيه وامه واخيه واخته وما يحيط به من اقارب واصدقاء .

اما انا المحطم اليائس .. ابن اصدقائى واقاربى ؛ لم اجد لى ابا يرعى طفولتى .. ولا اما تحنو على يقبلاتها وحناتها .. وحتى لو كان لى شىء من هذا فانى لا اذكر .. لقد اسدل على عهد طفولتى ستار كثيف لا تستطيع عيناى النفاذ الى ما وراءه ، وكل ما اذكر هو اننى خلقت كما انا الان .. هائل الحجم قبيح الوجه الى اقصى حدود القبح ، لم ار احدا قط يشبهنى .. ماذا انا اذن ؟ ! ويعود هذا السؤال من جديد يلح على ذهنى فلا اجد له جوابا سوى انينى وبكائى ..

سأشرح لك ما تملكنى من شعور فيما بعد ، قدعنى الان اعود الى قصة رفاقى الذين يسكنون الكوخ ، واقول رفاقى ، وانا اخدع نفسى لانهم ازالوا عنى بعض ما اعانيه وان كانوا لا يعلمون ..

— ١٤ —

مضى بعض الوقت قبل ان اعرف تاريخ حياة صحابى ، الى ان وفقت الى ذلك فى عدة مناسبات ..

كان الشيخ يدعى « دى يسى » وقد انحدر من اسرة فرنسية طيبة الارومة حيث عاش بين افرادها ردحا من الزمن وهو موضع الاكبار والتقدير ، ونشأ ولده فيليكس نشأة وطنية تتوثب روحه الى دنيا الحياة والحرية ، بينما اندمجت ابنته اجانا فى غمار المجتمع الراقى والحياة الاجتماعية التى تليق باسرتها فكانت ملتقى انظار الرجال

والسيدات على السواء ، وعرفت انهم قبل ان التقى بهم بعدة شهور كانوا يعيشون عيشة رخية حالمة فى مدينة عظيمة تدعى باريس . كما عرفت ان ابا سافى هو سبب خرابهم اذ كان تاجرا تركيا اتخذ من باريس مقرا له ولسبب لم افهمه ، اعتقلته الحكومة فى اليوم الذى وصلت فيه سافى قادمة من القسطنطينية لتحيا فى ظله ، فحكم عليه بالاعدام ومصادرة امواله واملاكه .

ولما كان فيليكس حاضرا محاكمته فقد فزع عندما سمع بهذا المصير القاسى وعول منذ تلك اللحظة ان ينقذه مهما كلفه الامر . فراح يفكر فى طريقة يتمكن بها من اطلاق سراحه ، وبعد محاولات عديدة استطاع ان يدخل السجن ليجد صاحبه فى حجرة عارية ضيقة سدت منافذها بالقضبان الغليظة ينتظر الموت فى يأس وقنوط .

واطلع فيليكس السجين على الجهود التى يبذلها لانقاذه فعاد الامل ينبعث فى قلبه ووعده اذا ما كلل النجاح مساعيه ان يكافئه بثروة طائلة ، ولكن فيليكس كان يتمنى ثروة من نوع آخر ، اذ ما وقعت عيناه على سافى حتى كلف بها وتمنى ان يتزوجها .

ولحظ التركى التأثير الذى احدثته الفتاة فى قلب الشاب فوعده ان يهبه اياها بمجرد انقاذه ونقله الى مكان امين .

وبينما كانت جهود فيليكس منصرفة الى اعداد العدة لانتشال صاحبه من وهدة السجن كانت سافى تبعث اليه برسائل على يد أحد خدم أبيها المخلصين تشد من ازره وتشعل حماسته . ولدى نسخ من هذه الرسائل ، أننى كما ذكرت لك تعلمت القراءة والكتابة .. ولم يكن عسيرا ان اظفر ببعض هذه الخطابات التى كانت تتنقل

www.liilas.com

من يد فيليكس الى يد اجاثا ، وسوف اعطيك هذه الرسائل قبل رحيلي لتكون على ما اقول شهيدا ..

وقد فهمت من الرسائل ان ساقى تنحدر من اصل مسيحية قبض عليها الاتراك واتخذوها امة لهم وشاء القدر ان يراها ابو ساقى فيؤسر بجمالها ثم يتزوجها أخيرا ، وكانت الفتاة تتحدث بحماس عن امها التى ولدت حرة تمقت القيود وتنفر من الاسار وقد علمت ابنتها عقائدها الدينية كما عودتها الاعتماد على النفس وتفضيل الموت على حياة لا تشرق فى سمائها شمس الحرية .

وماتت الام بينما ظلت تعاليمها حية فى ذهن ابنتها منطبعة فى قلبها وروحها ونفسها .

وحدد اليوم الذى سيعدم الشيخ التركى فيه ولكنه تمكن فى الليلة السابقة من مغادرة السجن واصبح بعيدا عن باريس ببضعة فراسخ وكان فيليكس قد استخرج جواز سفر باسماء اسرته المكونة من نفسه وابيه واخته ثم طلب من ابيه ان يشيع عزمه على الرحيل هو واسرته الى مكان آخر بينما انتقل فى الواقع مع ابنته الى جهة مجهولة فى باريس .

ورافق فيليكس الهاربين الى ليون ثم عبروا مونت سينى الى ليجهورن حيث انتظر الشيخ التركى اللحظة المناسبة ليتخطى حدود احدى الملكات التركية .

وعزمت ساقى على ان تظل الى جانب ابيها تلك المدة حتى تطمئن الى رحيله ومن ثم تتزوج بحبيبها وفارس احلامها ، كما ظل فيليكس معهما لذلك الغرض .

وقضت ساقى لحظات سعيدة الى جوار رجلها وقد اوقد الحب الباسم فى قلبها البكر انونا ملذها فهى تحمل الى قلبه سارية من هذا الضرام المنظم لكى تبعث فى

قلبه نشاطا يدفعه الى الحركة واملا يغريه بالحياة فيحس ما تحسه ، ويحتسى من الكأس التى تحتسى منها ، وفى هذا التجاذب العاطفى يعيش الحب وينمو ، وحسب المرء ذلك من سعادة خالدة ..

وكان الوالد الشيخ يرى ذلك الحب البرىء يقوى شيئا فشيئا فتبدو عليه الغبطة ولكنها الغبطة الكاذبة لانه فى صميم نفسه كان قد اعتزم امرا ، فهو ينفر من فكرة زواج ابنته الشرقية بشاب اجنبى ، ولكنه يخفى شعوره فى قرارة قلبه ويسدل على وجهه ستارا يظهر غير ما يبطن مخافة ان يسلمه منقذه الى السلطات الايطالية جزاء وفاقا على ما خان من عهد ونكث من وعد !!

اعتزم التركى الهرب هو وابنته خلسة فراح يتربص الفرص الى ان اتت اخبار من باريس سهلت عليه عزمه فقد حدث ان حكومة فرنسا اهتمت بالامر عندما علمت بفرار اسيرها وقررت عقاب الخائن الذى مهد له سبيل الفرار باشد انواع العقاب واقساها . وسرعان ما انكشفت مؤامرة فيليكس فقبض على دى بسى واجاثا واودعا السجن ، وبلغ ذلك فيليكس فاستيقظ من حلمه الجميل ليرى اباه الضرير واخته الوادعة فى قرارة السجن .

انهما بريئان فكيف يؤخذان بجريرة ابنهما الذى لايزال حرا طليقا ؟ ! وعذبته الافكار وعصفت به كما تعصف رياح الخريف باوراق الشجر فتطير بها كل مطار فاتفق سريعا مع الهارب انه اذا وجد سبيلا للفرار قبل ان يعود فيليكس اليه فى ايطاليا فعليه ان لا يضيعه على ان تظل ساقى فى ليجهورن الى ان يوافيها .

www.liilas.com

سافر فيليكس مسرعا الى باريس وتقدم فى الميدان ليواجه وحده العاصفة مؤثرا ان يكون الضحية ليحول عن ابيه واخته هول السجن ومرارته فسلم نفسه الى رجال البوليس طالبا ان يفرج عن البريئين ولكنه لم ينجح فظلا معتقلين خمسة شهور طوال قبل ان يفصل فى امرهما ويحكم عليهما بالنفى اخيرا .

وقد نفذ ذلك الحكم الرهيب فغادرا فرنسا والقيا عصا الترحال فى احدى قرى المانيا .. ثم لحق بهما فيليكس حيث اكتشف مقرهما . وقد علم فيليكس بعد ذلك ان التركى الخائن الذى من اجله تحمل هو واسرته عذاب السجن ومرارة الحرمان غادر ايطاليا مع ابنته تاركا له مبلغا ضئيلا مكافأة على ما قام به من مجهود فى سبيل انقاذه .

كانت كل هذه الحوادث هى سبب الوجوم الدائم الذى كنت اراه على وجه فيليكس ، كان فى مقدوره احتمال الفقر ولكن النذالة التى ابداها التركى وفقد حبيبته هما اللذان حطماه واخمدا فى نفسه كل بصيص من الامل حتى اذا عادت سافى أخيرا اليه فبعثت فيه حياة جديدة واعادت الامال الى قلبه .

فقد حدث عندما وصل نبأ مصادرة املاك دى يسى والحكم عليه بالنفى الى التاجر التركى وفتانه ان عزم الاول على ان يبتعد بسافى حتى لا تحركها الشفقة الى الرجوع لتلك الاسرة المنكوبة فدخل عليها بعد ذلك بايام قلائل قائلا أن مقامه فى ليجهورن قد اكتشف واصبح من الخطر أن يظل فيها ولذا فقد أجر قاربا ليقله الى القسطنطينية وسيرسل بعد ساعات قصيرة وطلب منها أن تنتظر مع خادم موثوق به حتى يرسل لها من هناك

ما يكفيه من مال فتوافيه .

وتصادف ان وقعت فى يد سافى بعض صحف ابيها فعلمت منها بماساة حبيبها واسرته فاصطحبت معها خادمة تعرف اللغة التركية والفرنسية ورحلت قاصدة المانيا .

وصلت سافى الى مدينة تبعد عن كوخ دى يسى بنحو عشرين فرسخا عندما سقطت خادمتها مريضة ،ورغم عناية سافى بها فقد ماتت بعد ايام قلائل ورثت صاحبة المنزل التى كانت تهبط فيه مؤقتا لحالها نظرا لجهلها بلغة البلاد فامدتها بدليل اوصلها الى كوخ دى يسى .

— ١٥ —

اثرت فى هذه القصة تاثيرا عميقا ، فعلمت منها معنى الغنى والفقر والفضيلة والرذيلة ، والامانة والخيانة ، والحب والحقد وتعلمت منها دروسا مختلفة دلتنى على نفسية الجنس البشرى من حب الخير او الميل الى الشر .

وحدث ذات ليلة من ليالى شهر اغسطس ، اننى كنت اجول فى الغابات المجاورة باحثا عن طعام عندما عثرت على حقيبة جلدية بها خليط من الملابس والكتب ففرحت بها وتابطتها عائدا الى مخبأى ، ولحسن الحظ وجدت بعض الكتب مكتوبة بنفس اللغة التى تعلمتها من اهل الكوخ وكانت عبارة عن كتاب « الفردوس المفقود » و « آلام فرتر » وكتاب آخر لا يحضرنى ذكره ، كانت هذه الكتب الثلاثة بمثابة كنز ثمين لى فرحت اقراها فى لذة وشغف محاولا استيعاب كل كلمة منها .

ولم يطرأ شىء من الحزن على اهل الكوخ فهم فى شاغل عن المناظر الطبيعية بسعادتهم الوارفة التى فاضت

www.liilas.com

عليهم بمقدم اعرابيتهم الحسناء .

ادبر الخريف واقبل الشتاء ففكرت جديا فى تنفيذ ما اعتزمته واتخذت وقتا اتقدم فيه الى دى يسى الضرير عندما يكون افراد الاسرة فى الخارج فهو لن يرانى ولن ينزعج من صوتى رغم خشونته كما فكرت فى اننى فى غياب اولاده — اكون قد استملت قلبه وحركت منه مواضع الشفقة فيكون شفيعا لى لدى باقى افرادالاسرة عند قدومهم .

ففى احد الايام خرجت ساق وآجاثا مع فيليكس ليتمشوا قليلا فى اشعة الشمس الدافئة وظل دى يسى العجوز وحده فى الكوخ ، وكأنما اراد ان يقتل الوقت فأخذ الناى وبدأ يوقع عليه انغاما حزينة عذبة لم اسمع منه مثلها منذ ان قدمت الى هذا المكان ، وكان وجهه فى بادىء الامر ينبض بالبشر ويطفح بالسرور ، ولكنه لم يلبث ان تجهم وعلاه التقطيب ثم اذا به اخيرا يلقى الناى الى جانبه ويسلم نفسه الى التفكير العميق .

احسست بقلبى يزداد وجيبه فقد حانت اللحظة التى كنت انتظرها من امد طويل ، وفيها ستتحقق احلامى فانعم بالعيش الرغيد بين أفراد أسرة هانئة ..

قمت من مكانى ، ولكن خورا غريبا اعترانى فسقطت على الارض منهوك القوى ، موزع النفس ، ولكنى عدت الى النهوض وما كدت اخرج من الجرن حتى لفح وجهى نسيم ندى جدد عزمى وتصميمى وملا نفسى بالامل الباسم ..

طرقت الباب فسمعت دى يسى يقول من الداخل :

— من الطارق ؟ ! تفضل بالدخول ..

ففعلت قائلا :

— ارجو المعذرة لازعاجك يا سيدى ، فانا مسافر غريب انهكه التعب وغلبه الاجهاد ولا ابغى الا السماح لى بالراحة هنا بضع دقائق اصطلى فيها امام المدفأة.

فقال دى يسى :

— على الرحب والسعة ، وكنت اود ان اقدم لك ما ينبغى فى مثل هذه الاحوال لولا ان اولادى بالخارج ، وانا كما ترى ضرير سلبت منى نعمة الابصار ، واخشى الا استطيع تقديم بعض الطعام اليك .

— لا تزعج نفسك ياسيدى الكريم فلدى طعام وحسبى ان استريح واصطلى .

ثم جلست ودام الصمت بيننا ..

كنت اعلم ان كل لحظة تمر ثمينة لا يمكن تعويضها، ولكنى جعلت افكر فى الطريقة التى ابدأ فيها الحديث الى ان تداركنى مضيفى قائلا :

— ان لهجتك فى الحديث تدل على انك ريفى ..فهل انت فرنسى ؟ !

— كلا .. ولكنى نشأت وسط اسرة فرنسيةوعشت بينها ردحا من الزمن فتعلمت منهم اللغة التى كانت تتداولها ، وانا الان فى طريقى الى بعض اصدقاء احبهم واعلق على مساعدتهم آمالا عريضة .

— اهم المان ؟ !

— كلا ، بل هم فرنسيون ، ولكن دعنا نغير هذا الموضوع ، فانا مخلوق تعس احاط به الشقاء ، ليس لى فى الحياة من يهتم بى او يرثى لحالى .. وهؤلاء الذين احبهم واعقد عليهم آمالا لا يعرفون عنى شيئا ولذا فأخوف ما اخافه ان اعود من لدنهم فاشلا ذليلا فيتبدد املى فى الحياة .

www.liilas.com

ـ لا تيأس يا صديقى ، فليس معنى عدم وجود الاصدقاء انك تيأس .. فاعتمد على آمالك وكن واثقا من عدل السماء ، اذا كنت تريد الحياة ابدا على لون واحد فانت من الخاطئين .. لم لا تستقبل نكدها فتصد واعتدال كما تستقبل افراحها فى دعة واطمئنان ؟ ! .. ان الحياة يا صاحبى مزيج من الدمع والابتسام ، فلنقبلها على هذا النحو ، غير مسرفين فى الغبطة والدعة ، ان كنا حقا صادقين فى تبليغ رسالتنا المقدسة الى المجتمع والعمران !! فما دمت واثقا من نبل اصدقائك فاعتمد عليهم بعد الله .

ـ انهم نبلاء .. بل انبل من فى الوجود ، ولكنهم يخشون ان الحق الاذى بهم ، رغم انى طيب القلب لا اميل الى فعل الشر او اصطناع الاثم .. ولكن الشك يغيم على أعينهم فهم لا يرون .. والريب يخالج نفوسهم فهم لا يشعرون .

ـ هذا من سوء الحظ ، ولكن اذا كنت لا تميل الى الاذى ، اليس فى استطاعتك ان تقيم الدليل على ذلك ليثقوا بك ويطمئنوا من ناحيتك ؟ !

ـ سأفعل ذلك دون ريب معتمدا على ما اكنه لهم من حب واعجاب وتقدير .

ـ واين يقيم اصدقاؤك ؟ !

ـ على مقربة من هنا .

فسكت دى يسى لحظة ثم قال :

ـ اذا كنت صادقا فى روايتك ، واذا كنت حقا لا تضمر لهم اذى كما تقول ولا اظنك الا مخلصا كما ينبىء صوتك ، لاننى ضرير ليس فى استطاعتى ان ارى ملامحك فقد استطيع مساعدتك فرغم فقرى ، ورغم اننى منفى ،

احس بالسعادة تفيض على قلبى عندما اقدم مساعدة لاى مخلوق .

ـ ان لسانى يعجز عن شكرك ايها السيد الكريم ، وانا من ناحيتى اتقبل مساعدتك بقلب ملؤه الامل .. لقد انتشلتنى يا سيدى من حمأة كنت اتمرغ فيها ، واعتقد انه بمساعدتك سوف لا انبذ من المجتمع كما سوف انال محبة الناس اجمعين .

ـ ان الله غفور رحيم ، وعلى فرض انك مذنب حقا ، فلك من تانيب الضمير ولذعاته ما يعيد اليك صوابك ويدنو بك من طريق الخير ، وان كنت بائسا ، فانا مثلك ، قاسيت انا واسرتى ، رغم براءتنا مرارة السجن والحرمان ، مما جعلنى افهم ما تحسه وما يعتلج بين جنبيك .

ـ لن أنسى معروفك ما حييت لان الكلمات الحنونة التى خرجت من شفتيك تفتح امامى باب المستقبل الباسم ، وتؤكد لى نجاحى فى اكتساب قلوب هؤلاء الأصدقاء الأحباء .

ـ هل لى ان اعرف مقامهم واسماءهم ؟!

ازداد خفقان قلبى ، اذ جاءت اللحظة الحاسمة ، التى سيكون فيها نعيمى كما سيكون فيها شقائى ، وشعرت وقتئذ بقواى تخور وبأنى على وشك الاغماء ففرقت فى مقعدى ورحت انتحب بصوت مرتفع .. وما كدت افعل حتى سمعت وقع اقدام باقى افراد الاسرة وهى تقترب ، فلم اضع لحظة واحدة ، اذ جثوت تحت اقدام الرجل الشيخ وامسكت بيده صائحا من خلال الدموع :

ـ لقد حان الوقت الذى تساعدنى فيه ياسيدى ..

www.liilas.com

احمنى منهم ، واجعل قلوبهم تطمئن الى ، فانت واولادك هم الاصدقاء الذين عنهم اتحدث ..

ففزع الرجل من لهجتى الباكية وصاح :

ـ يا الهى الرحيم .. من انت بحق السماء ؟ !

وفى هذه اللحظة فتح باب الكوخ ودخل فيليكس اولا ثم تبعته سافى واجاثا ..

من ذا الذى يستطيع وصف الرعب الذى بدا على وجوههم بمجرد ان سقطت عيونهم على ؟ !

سقطت كل من سافى واجاثا وقد اغمى عليهما بينما امسك بى فيليكس وانتزعنى من تحت اقدام ابيه ودفعنى الى خارج الكوخ ثم انهال بعصا ضخمة يوسعنى بها ضربا موجعا اليما .. كان فى استطاعتى ان امزقه اربا كما يفعل اسد الغاب بفريسته ولكننى لم افعل ، اذ شعرت بقلبى يغوص بين جنبى وبانفاسى تضيق شيئا فشيئا حتى لتكاد تخنقنى ..

لقد انقطع آخر وتر من قيثارة الامل التى كنت اعزف عليها .. وما ان رايت فيليكس يتاهب لتصويب ضربة قاضية على راسى حتى تهاويت امامه ، وعدوت كما يعدو الظليم وانا اركض ، ثم تضطرب قدماى فاسقط ، ثم استرد نشاطى فانهض لاستانف القفز والعدو والعثار .

ـ ١٦ ـ

وهبت نسمة ندية هدأت من ثورتى فعاد بى الفكر الى اهل الكوخ . الم اكن متسرعا عندما غادرتهم على هذا النحو ؟ ! كان واضحا ان محادثتى للرجل الشيخ اثارت اهتمامه وجعلته يميل الى جانبى ولكنى كنت احمق اذ تركت الفزع يتغلب على عندما سمعت وقع اقدام

فيليكس وصاحبيه ، كان ينبغى على ان اكشف نفسى لباقى افراد الاسرة تدريجا ، فاقابلهم فى الوقت الذى يتوقعون فيه رؤيتى .. واخيرا عزمت على ان اعاود الكرة فارجع الى دى يسى مرة اخرى لاتحدث اليه واضمه فى صفى .

هدأتنى هذه الافكار فقضيت بعد ظهر ذلك اليوم فى نوم عميق لا يتخلله غير صور باهتة لحوادث الامس الرهيبة ، فاستيقظت منهوك القوى ، خائر الاعصاب وزحفت من مخبأى لابحث عن الطعام .

وبعد ان اشبعت نهمى سرت فى الطريق المؤدية الى الكوخ ومن ثم دلفت الى مخبأى القديم فى هدوء منتظرا استيقاظ اهله ، ولكن راعنى ان تمضى الساعات بطيئة متثاقلة دون ان يظهر لهم اثر .

سرت الرعدة فى بدنى فقمت وقد تملكنى احساس غريب ونظرت من الثقب لاجد كل شىء فى سكون الموت وظلامه فلا حس ولا حركة .

وسمعت وقع اقدام رجلين يقتربان من باب الكوخ ثم سمعتهما يتكلمان بالقول والاشارة بلغة لم افهمها فلم ادر ماذا يقولان وبعد ذلك بلحظات رايت فيليكس برفقة رجل آخر ، فعرتنى الدهشة اذ ان احدا لم يخرج من الكوخ اثناء مراقبتى له ولكن دهشتى زالت عندما سمعت جدال الرجلين .

قال الرجل مخاطبا فيليكس :

ـ وهل تظن انك ستضطر الى دفع اجر ثلاثة شهور وتفقد محصول صديقتك ؟ ! اننى لا اقبل ان تحتمل اى خسارة ولذا ارجو ان تقيم فى الكوخ حتى تفكر جيدا فيما انت مقدم عليه .

www.liilas.com

فقال فيليكس : لا فائدة من الجدال ، فلن نستطيع السكنى بكوخك ، اذ ان ابى فى اشد حالات الخطر منذ ان وقع ذلك الحادث الذى قصصت ظروفه عليك ، كما ان زوجتى واختى لن يبرءا من الرعب المستولى عليهما فأرجو ان لا تطيل النقاش فيما لا طائل تحته ودعنى اخيرا من هذا الكوخ المشئوم قبل ان تسوء العاقبة .

وكان فيليكس يضطرب كريشة فى مهب الرياح ، ثم دخل هو وصاحبه الكوخ فلبثا فيه لحظة ثم خرجا .. ومن ثم لم ار احدا من اسرة دى يسى بعد ذلك .

قضيت بقية اليوم فى مخبأى وانا فى اسوأ حال من اليأس والحزن ، فقد رحل رفاقى وانقطع بذلك آخر خيط كان يربطنى بالحياة ، ورايت الغضب والرغبة فى الانتقام يتملكاننى الى حد لم استطع معه ان اكبح جماح نفسى ، ولكنى عندما تذكرت وجه دى يسى الحنون وبسمة اجانا الوادعة ورقة سافى وجمالها ، تلاشت تلك الافكار السوداء من ذهنى وبكيت .. وكأنما محت دموعى ما كان يعتمل بين جوانحى .

غير ان هذا الشعور الجميل لم يطل اذ سرعان ما عاودتنى تلك الافكار المقبضة فجعلتنى اذكر كل معاملة قاسية عوملت بها من بنى البشر ، وكل ازدراء قوبلت به فانقلبت هائجا احطم كل ما اراه امامى شر تحطيم .

وعندما اقبل الليل كنت قد حطمت كل غصن فى حديقة الكوخ وجئت بالاحطاب فاحطت بها جدرانه ثم قبعت انتظر بزوغ القمر لابدأ عملى .

واكتهل الليل ، وهبت ريح صرير عاتية جعلت تدفع قطع السحاب المتكاثفة امامها .

تملكنى شعور شيطانى فتقدمت الى عيدان الحطب

الجافة واشعلت احداها ثم رحت ارقص حول الكوخ .. الذى كان معقد آمالى .. ومطمح هناءتى . وجعلت اصيح واصرخ مبتهجا لهذا المنظر الفريد والريح تعصف باعواد الحطب وتنفخ فيها فتزيدها اشتعالا . ولم تمض لحظات حتى رأيت السنة اللهب تلف الكوخ ، وما ان ايقنت من ان احدا لن يستطيع انقاذ شىء منه حتى تركته قاصدا الغابات لاتخذ لى فيها ملجأ جديدا !!

والان رأيت العالم منبسطا امام عينى . فمن اين ابدأ اعمال الهدم والتخريب ؟ ! لن ينجو اقليم من كوارثى ، ولن تبقى قرية او بلدة دون اعمل فيها بمعول التدمير . الناس سواء .. والعالم سواء .

وبينما انا افكر تذكرتك انت وكنت قد عرفت من اوراقك التى عثرت عليها فى جيبك انك ابى .. وخالقى .. ومن احق بغضبى غير هذا الذى دفع بى الى غمار الحياة ؟ !

ومن بين الدروس التى كان يلقيها فيليكس على سافى « علم الجغرافيا » فألممت به الماما يجعلنى اعلم جيدا مواقع البلدان ، ولما كنت قد عرفت من مذكراتك ايضا ان وطنك الاصلى هو جنيف ، فقد عولت على ان ابدأ منه .

ولكن كيف السبيل اليه ، اننى لا ادرى شيئا عن اسماء البلدان التى يجب ان امر منها كما اننى لا اطمع فى سؤال مخلوق . ولكننى مع ذلك لم ايأس فمنك انت فقط استمد العون ، رغم كونى لا اشعر لك باية عاطفة سوى الحقد والمقت .. ايها الخالق الذى لا يرحم .. لقد بثثت فى العواطف والاهواء وانشأتنى من العدم لتقذف بى فى وهاد البؤس والشقاء .. وعلى رأسك تقع

www.liilas.com

اعمالى ويا لها من اعمال تشيب من هولها الولدان .
كان سفرى شاقا لانني كنت اسير ليلا واستريح نهارا حتى لا تقع عينا مخلوق على ، فقاسيت حرارة القيظ وقارس البرد ولسعات الثلوج . وهطول الامطار وصلابة الارض .. لا راحم يرحمنى ولا معين يشفق على .. عاريا الا من ثياب خفيفة لا ترد عن جسمى عاديات التقلبات الجوية ، جائعا تكاد تقتلنى المسغبة ، ظامئا انتظر ديمة القطر ، مقرورا ارتقب اشعة الشمس ، لا ملجأ يعصمنى ، ولا ظل احتمى به .. كم لعنتك فى كل خطوة خطوتها وكم تمنيت لك الردى والبؤس الذى مازال يطويني وينشرني .

تقدمت وحب الانتقام ينير قلبى والحقد والكراهية يشدان عزمى الى أن اقتربت من البلد المنشود فحدث حادث جديد كان بمثابة الوقود يوضع فى اتون مشتعل .

ذلك اننى عندما بلغت سويسرا كانت الريح تعصف باغصان الشجر فوقفت استريح بالقرب من نهر كبير يتدفق ماؤه وما كدت افعل حتى سمعت اصواتا مختلفة تقترب فلجأت الى ظل شجرة ضخمة من أشجار السرو متواريا خلفها عندما رايت طفلة صغيرة تقترب منى مسرعة وهى تتضاحك كأنما هناك من يركض وراءها . وراعنى انها اخذت تجرى على حافة النهر حتى اذا انزلقت قدمها الصغيرة هوت فى الماء صارخة فازعة حتى .. تركت مخبأى على الفور والقيت بنفسى فى التيار الجارف حتى انقذتها وحملتها الى الشاطىء فاذا بها فاقدة الوعى ، وبينما انا ابذل كل ما اعرفه من الوسائل لتسترد ادراكها فوجئت بالشخص الذى كان يركض فى اعقابها ينتزع الطفلة من بين يدى ثم يهرع بها الى مكان

كثيف ، ولم ادر لما تبعته والظاهر اننى اردت ان اطمئن على الفتاة . .

ولكنه ما كاد يراني اقتفى اثره حتى صوب الى بندقية لا ادرى من اين اتى بها واطلقها علىّ . فسقطت على الارض وقد اصابنى جرح بليغ بينما هرب الاثيم متوغلا فى الغاب .

اهذا جزاء الخير الذى فعلت ؟ ! لقد انقذت حياة طفلة بريئة وعاقبنى اكافأ ما يكافأ به انسان .. اصطكت اسنانى من هول الالم وازداد حقدى على البشر فصحت صيحة سقطت على اثرها مغمى علىّ .

امضيت عدة اسابيع كنت فيها على اسوأ حال ، وانا ابذل كل ما استطيعه لكى يندمل الجرح ، فقد نفذت الرصاصة الى كتفى ولم اكن ادرى اذا كانت لا تزال فيها ام نفذت منها ، وعلى كل حال لم يكن فى وسعى اخراجها .

وبعد عدة اسابيع اندمل الجرح واصبحت قادرا على مواصلة الرحيل ولم يمض شهران على ذلك حتى اشرفت على حدود جنيف .

بلغتها فى المساء وكان الجوع والظما قد اخذا منى كل مأخذ فارتميت على الارض وسرعان ما اسلمنى التعب والاجهاد الى نوم عميق .

واستيقظت على صوت طفل جميل يقترب من مكان نومى ، وهو يتضاحك فى سذاجة وبراءة .

وفجأة طافت بذهنى فكرة .. ان هذا المخلوق الصغير البريء ساذج لم تمكنه حياته الصغيرة من اصطناع الاثم والخطيئة فلو اننى اختطفته وعلمته فالفنى واطمأن الى لانس وحدتى ورقه عن نفسى ما كان يعتمل فيها

www.lilas.com

لكان لى خدنا وفيا وصديقا مخلصا .

مر الطفل الى جانبى فاستوقفته ممسكا بذراعه النحيلة ولكنه ما كاد يراني حتى اخفى عينيه بيديه وصاح صيحة مكتومة وازحت كفيه الصغيرتين عن عينيه وقلت له :

— ايها الطفل .. ما معنى هذا .. اننى لا انوى بك شرا فاستمع الى .. فسرت فى جسد الطفل رعده شديدة وصاح :

— دعنى .. دعنى ايها المسخ البشع .. فانت تريد ان تاكلنى وتمزقنى اربا اربا .. دعنى والا اخبرت ابى وحدثته عنك .

— اسمع يا بنى .. لن ترى اباك بعد فسوف تاتى معى ..

— دعنى ايها الشبح الكريه فان ابى هو مستر فرانكشتاين وسوف يصليك العذاب الاليم اذا لم تدعنى اعود اليه ..

— فرانكشتاين !! انت اذن احد اقارب عدوى الالد .. الذى اقسمت الايمان المغلظة على ان انتقم منه ؟! لتكن اذن اول ضحاياى .

وكان الطفل لا يزال يكافح وينعتنى بالاوصاف التى تزيد من غيظى وغضبى فامسكته من عنقه لاسكته ولكن راعنى ان رايته يتوقف عن الحركة ويسقط فجاة عند اقدامى جثة هامدة ..

اخذت احملق الى هذه الجثة المسجاة وقد طغت على قلبى موجة الانتصار فجعلتنى اصفق بيدى وانا اقول .

— انا ايضا فى استطاعتى ان اخلق المتاعب والاحزان .. سيفقد عدوى راحته عندما يعلم بنبأ اخيه ..

وسيقوض قلبه بين جنبيه عندما تتتابع حوادث القتل فى افراد اسرته . سيذوق مثل ما اذاقنى بل اضعافا مضاعفة ..

وبينما انا انظر الى جثة الطفل رايت شيئا يلمع على صدره فتناولته لاجده ايقونة ذهبية معلقة فيها صوره لامراة جميلة فرحت اتامل عينيها السوداوين بلذة وغبطة لانها من طراز صحابى الذين كانوا يسكنون الكوخ .. كنت احب هذا النوع من البشر فهو الذى يضفى السعادة على النوع الاخر وهو الذى يهبه الحب والحنان .. والحياة !!

وتركت المكان الذى ارتكبت فيه جريمتى الاولى ورحت انشد مأوى آخر الى ان وجدت جرنا خلته خاليا فى اول الامر ولكنى ما ان دخلته حتى لقيت فتاة نائمة على كومة من القش .. كانت صغيرة كما لم تكن اقل جمالا من صاحبة الصورة التى احملها ..

فكرت لحظتئذ فى تلك البسمات الرقيقة التى يرسلها هذا النوع من الناس اجمعين عداى .. فانحنيت عليها وهمست :

— تيقظى ايتها الساحرة البيضاء ، فحبيبك على قيد خطوة منك .. حبيبك الذى يتمنى ان يضحى بحياته لقاء نظرة حنونة من عينيك .. تيقظى يا معبودتى !!

وتحركت النائمة فعرتنى رعدة الفزع اذ خشيت ان تستيقظ حقا وتراني فتستطيع الوشاية بى لارتكابى الجريمة . فى مقدور تلكما العينين الساحرتين اللتين كنت اتغزل فيهما منذ لحظة ان تتفتحا تتعرف الى اوصافى وتنقلها الى ذوى الشأن للاقتصاص منى .

كانت فكرة مجنونة !! تحركت لها نفسى الشريرة ،

www.liilas.com

ولست انا ، لقد اقترفت هذه الجريمة لان البشر سلبونى كل شىء وهى على استعداد لان تفعل مثلهم ، فلتعاقب اذن ..

انحنيت على الفتاة ثم وضعت الايقونة مع الصورة فى اجد جيوب ثوبها ، ولما عادت الى الحركة هرعت الى الخارج هاربا !! ورحت اطوف بتلك البقعة بضعة ايام آملا ان اراك حتى تحقق املى اخيرا وهانذا امامى الان..

لقد سمعت قصتى ولعلك بعد ذلك تقدر الظروف التى احاطت بى فلا تفارقنى قبل ان تعدنى بان تجيب طلبى..

انى وحيد ، شريد ، بائس ، محطم ، مكروه من البشر ، ليس لى صديق ولا انيس فعدنى بان تضع لى من نوعى انثى اتخذها زوجة لى تبادلنى الحب وتساهمنى الحنان!!

— ١٧ —

انتهى المسخ من قصته ثم ثبت نظراته على يتوقع جوابى ولكننى كنت مضطربا لا استطيع ترتيب افكارى لابداء رأيى القاطع فاستطرد :

— ينبغى ان تخلق لى انثى ابثها العواطف التى تجيش بين جوانحى ونقاسمنى الحياة التى احياها .. لن يستطيع احد ان يفعل ذلك سواك فكل ما ارجوه ان لا تضرب عرض الحائط والا كان وبالا على وعليك .

— لقد اجبت طلبك على شرط ان تغادر اوربا الى الابد وكل مكان آخر يتخذه البشر مقاما لهم ، حالما اضع بين يديك الانثى التى سترافقك .

فصاح المسخ وقد طفح البشر على وجهه البشع :

— اقسم بالشمس فى خدرها وبالكواكب فى ابراجها .. اقسم بنار الحب التى تحرق قلبى وتشوى أضلعى

انك اذا حققت امنيتى ، لن تقع عيناك على مرة اخرى ، عد الى بيتك وابدأ عملك ، وسوف ارقب نجاحك على اثر من الجمر ولا تخش من قربى شيئا ، فلن اظهر لك الا عندما تنتهى من عملك .

وما ان قال ذلك حتى غادرنى مسرعا كأنما هو يخشى ان اتحول عن فكرى فرايته يهبط الجبل فى سرعة تثير الدهشة وسرعان ما غاب عن عينى وسط الثلوج المتراكمة ..

اردت ان اعود الى بيتى قبل ان يلفنى الظلام فحاولت الاسراع ، ولكن قلبى كان غائصا بين ضلوعى وحواسى مضطربة فلم استطع ، وعندما بلغت منتصف الطريق كان الظلام قد صبغ كل شىء باللون الاسود الرهيب .

وبزغ الفجر قبل ان اصل الى قرية « شارمونيكس » ورغم انى كنت فى مسيس الحاجة الى الراحة فلم افعل بل واصلت سيرى الى جنيف بقلب مثقل بالهموم ونفس مفعمة بالاسى ..

وولجت البيت اخيرا فراع اهلى شحوبى وتضعضع قواى .

— ١٨ —

وكنت قد سمعت ان بعض العلماء الانجليز وثقوا الى مخترعات ادركت انها تفيدنى فى القيام بعملى فائدة كبيرة ، كما توفر على وقتا طويلا ، ففكرت غير مرة فى ان استأذن ابى فى السفر اليهم ، ولكن صحتى كانت قد ساءت الى حد كبير فاذا بعقلى يخبو شعاعه ، واذا برغبتى فى العمل تزول وتتبدد . واراد ابى ان يرفه عنى بشتى الوسائل ليرفع نقاب الوجوم الذى اسدل على

www.liilas.com

وجهى ، ولبعيد الى نفسى المرح والسرور ، ولكنه فشل ..

وكنت اقضى اليوم كله وحيدا فى احد القوارب اراقب السحب واستمع الى تلاطم الامواج ، ولكن الهواء الطلق النقى واشعة الشمس الحنونة اعادت الى بعض ما فقدت ، وحدث ذات يوم ان ابتدرتى ابى قائلا ، وكنت عائدا من جولتى اليومية : اننى سعيد اذ الاحظ علائم الصحة تعود اليك يا بنى العزيز ، انك ما زلت تبدو حزينا وتميل الى العزلة والانفراد ، وقد حاولت بمختلف الطرق ان اسرى عنك فلم افلح الى ان جالت فى ذهنى فكرة عليك ان تحققها ..

لعلك تعلم يا ولدى اننى كنت اود دائما ان تكون عزيزتنا اليزابيث زوجة لك . فقد نشأتما معا تكنان لبعضكما كل محبة واعزاز ، كما اتفقت مشاربكما واتحدت ميولكما حتى اصبح كل منكما اهلا بالاخر .. ولكن اخوف ما اخافه ان تتحطم آمالى ، اذ ان من المحتمل ان تكون نظرتك اليها نظرة الاخ الى اخته دون رغبة فى الزواج . كما ان من المحتمل ايضا ان يكون القدر قد جمعك بفتاة اخرى وقعت من نفسك فانت تريد ان تتحلل من قيود اليزابيث لتتزوجها ، وهذا ما يقض مضجعك ويجعلك دائم التجهم والحزن .

فلم اتمالك نفسى من القول :

— والدى العزيز — ليس فى استطاعتى ان اصف ما اشعر به نحو اليزابيث من محبة واخلاص ، فهى تنفرد باعجابى وامتلاك قلبى وكل آمالى ان تصبح زوجتى وملاكى الحارس .

— ان اعترافك يا فيكتور يقوى املى ويشفى على

قلبى سرورا لا حد له ، ولكم اشعر بالسعادة عندما اراكما قد ارتبطتما برباط وثيق تباركه السماء والارض .. فلننتهز اذن فرصة غفوة الدهر عنا لنتم هذا البناء المبارك .

استمعت الى قول ابى فى صمت استعرض فيه الحوادث الهائلة التى مرت بى استعراضا سريعا لألقى اليه برايى ، كنت مقيدا بوعد .. وعد يجثم على قلبى كالجبال الراسية .. وعد لن أستطيع التخلص منه مهما بذلت .. ولو تخلفت لحاق بى وبأسرتى الحبيبة الشر من كل جانب .. فهل ازف وذلك الحمل الثقيل يرزح فوق صدرى ، وتلك السلاسل الخانقة تحيط بعنقى ؟ ! لأوجلن زواجى اذن ، الى ان اتحلل من قيدى فاصنع انثى المسخ وأسلمها اليه ليرحل بعيدا فلا يهدد سعادتى .. تذكرت ايضا الرحلة التى ينبغى ان اقوم بها الى انجلترا لمقابلة هؤلاء العلماء والتباحث معهم .

اجبت ابى طالبا تأجيل الزفاف كما طلبت ان يأذن لى بالسفر الى انجلترا زاعما اننى اريد الراحة والاستجمام .

وتم الاتفاق على ان يلحق بى صديقى كلير فال فى ستراسبورج ، رغم ان ذلك كان يعارض رغبتى فى الانفراد والعزلة ، كما تم الاتفاق على ان اتزوج من اليزابيث حال عودتى .

رحت اجهز حقائبى استعدادا للسفر عندما تملكتنى فكرة مزعجة : لو سافرت فسوف ادع اسرتى الحبيبة تحت رحمة هذا المسخ يفعل بها ما يشاء فهل يا ترى يحفظ عهده الذى قطعه على نفسه بعدم الجنوح الى الاذى ؟ ! ام سوف يتبعنى الى انجلترا ؟ لقد قال انه

www.liilas.com

سيقتفى اثرى اينما ذهبت ليرقب نجاحى على احر من الجمر .. فهل سيفعل ذلك حقا ؟ ورغم ان هذه الفكرة الاخيرة مرعبة فى حد ذاتها الا انها افضل لدى من ان اترك اسرتى تحت رحمته .

وفى آخر شهر سبتمبر غادرت موطنى للمرة الثانية فركبت العربة دون ان ادرى الى اين انا ذاهب ، وراحت المناظر الجميلة تمر امام عينى كالحلم .

وفجاة تذكرت اننى نسيت ان اشحن معى آلاتى واجهزتى الكيميائية فعدت الى الحزن والوجوم .

وبعد ايام بلغت ستراسبورج ، حيث لحق بى صديقى كلير فال ، وكان يمتلىء حيوية ونشاطا . فاستقبلنى استقبالا حارا ، واستأنفنا السير فكان كلما وقعت عيناه على احد مناظر الطبيعة الجذابة راح يهتف بى : انظر .. هنا الحياة ، من اجل ذلك نعيش .. اننا الان ننعم بالحياة يا عزيزى فرانكشتاين .. انزع عن وجهك نقاب الحزن الذى لبسته طويلا وانظر الى الحياة نظرة المتفائل ..

والواقع انه انسانى بعض ما اعانيه وخفف نفسى من اثقالها ورد الى شيئا من الطمأنينة والدعة ، فرحت انظر حولى باسما لارى الحقول الخضراء المترامية يخترقها نهر الراين كانما تعبث باطرافه اطياف جميلة تدعوه الى الدلوف اليها .. وتغريه على ان يتحرك وسنان فهو يخطو فى دعة ، ولكن فى كبرياء العاشق وهو يصدح بالتغريد ، ولكن يشجى نفسه ويانس بمناجاة ذكرياته الحلوة المريرة التى لن تنطوى حتى يطوى العدم آخر موجة فى مجراه . وكان قلبى يهتف بأناشيد الغبطة والجمال ، كلما ادرت عينى فيما حولى

من نضارة وصفاء فاشعر بما يشعر به الحالم من لذة الرؤيا وسحر الخيال ..

وكنا قد اتفقنا على ان نحملنا سفينة على صدر هذا النهر الحنون لننتقل من ستراسبورج الى روتردام حيث نستقل الباخرة الى لندن .

وفى هذه الرحلة النهرية مررنا بعدة جزائر جميلة تتعالى من اوساطها الابراج المرتفعة التى تتسامى فى اناقة ورشاقة ومكثنا يوما فى مدينة دمانهيم ، ثم وصلنا فى اليوم الخامس من رحيلنا من ستراسبورج الى مدينة « مانس » حيث ينبع نهر الراين فى جلال وروعة ، وحيث تحيط به المناظر الخلابة ما يأخذ بأعنة القلوب ، فعلى احد ساحليه تمتد الحقول وقد غصت بأشجار الكرم الذى كان قد حان قطافها فالعمال يقومون بعملهم فى بهجة ونشاط وهم يتغنون بأعذب الاناشيد وارق الالحان ، بينما ينحدر الساحل الثانى بما يشبه السهل تتوسطه بضعة بيوت غارقة فى الارض كانها قطعة من اطلال لعصور بائدة ، اذا مرت بها العاصفة استحت ان تعبث بها .

اذا كانت هذه المناظر قد اثرت فى نفسى المحزونة الى هذا الحد فكيف اذن لا تؤثر فى صديقى هنرى ذى الروح المرحة الطروب ؟ ! كان يخيل الى انه يعيش فى دنيا اخرى .. دنيا خرافية لا تمت الى دنياتا بسبب .

وفى صباح احد ايام شهر ديسمبر الاخيرة سافحت عيناى لاول مرة صخور بريطانيا الشاهقة البيضاء وهى تجثم فى رهبة عند اقدام الجبال العالية والسهول النضرة الخضراء التى يخترقها نهر التيمس ، ورأينا « تيلبورى فورت » فتذكرت موقعة الارمادا الاسبانية ثم مررنا بعدة

www.liilas.com

بلدان كنت اسمع بها فى سويسرا وهى « جرافسند » و « جرينويتش » .

واخيرا راينا مآذن لندن السامية وهى تخترق الفضاء فى جلال وروعة فحمدنا الله على وصولنا سالمين .

— ١٩ —

عزمنا على المكوث فى تلك المدينة العظيمة بضعة شهور رحت فيها اجمع المعلومات التى جئت من اجلها للقيام بوعدى الرهيب ، وكذا فعل كلير فال ، اذ اخذ يقضى اوقاته فى مقابلة اساتذة اللغات الشرقية والتعرف اليهم ، وكان يرى ايضا انه ينبغى للطالب المتعمق ان يزور الهند حيث تكثر اللغات المتداولة بين الشعوب هناك ، ولم ارد من ناحيتى ان احول دون غبطته فكنت ارفض مصاحبته وامضى وقتى فى شىء آخر كجمع الخامات والمواد الاولية وكل ما يلزم للمخلوق الجديد ولا انكر ان هذا العمل الجديد كان يفزعنى ويرهقنى ويزيد من عذابى وتأنيب ضميرى .

وبعد ان امضينا عدة شهور فى لندن جاءتنا رسالة من صديق لنا فى سكوتلاندة يثنى فيها بمحاسن بلده ويسألنا ان نزوره فيها بعض الوقت ، وتحمس كلير فال لتلك الدعوة فراح يلحف فى قبولها حتى وافقت اخيرا .

كنا قد وصلنا الى انجلترا فى اول اكتوبر ، وها نحن اولاء الان فى فبراير فاعتزمت ان نبلغ نهاية هذه الرحلة فى يوليو ، ولذا لم نقصد الشمال عن طريق ارينورج ، بل بالمرور على ويندسور واوكسفورد وماتلوك وبحيرات كامبرلاند .

جمعت اجهزتى الكيميائية والخامات التى وفقت الى

العثور عليها وصممت على ان ابدأ عملى فى مكان مجهول من سكوتلانده .

زرنا بلادا كثيرة واقمنا فيها مددا تتراوح بين الشهر والشهرين فى كل منها حتى اذا قاربنا برث حيث يسكن صديقنا وجدت نفسى فى حاجة الى العزلة والانفراد .

فقلت لكلير فال : اننى سأطوف باسكوتلانده وحدى ، وفى مقدوره ان يذهب الى صديقنا حيث يقضى معه الشهرين اللذين سأغيبهما عنه ، وطلبت منه ان لا يتدخل فى شئونى فى تلك المدة القصيرة ولا يحاول ان يعلم بحركاتى وسكناتى ، واردفت :

— وآمل عندما اعود اليك ان تجدنى اخف قلبا واحسن حالا من الان .

وحاول هنرى ان يزحزحنى عن عزمى ولكنه لم يفلح فقبل على مضض وقال : كنت افضل ان اصحبك فى تطوافك ، ولكن ما دمت تميل الى العزلة فلن ازعجك على ان تبكر بالعودة ما امكن ، فقد احن الى سويسرا فنرجع سويا .

وبعد ان افترقت عن صديقى رحت اتفقد قرى سكوتلانده باحثا عن مكان منعزل لانهاء عملى ، كما لم اكن اشك فى ان المسخ يتبعنى وسوف يكشف لى عن نفسه عندما يرانى على استعداد لتسليمه انثاه .

وكان المكان الذى اصطفيته لهذا العمل يقع على صخرة عالية تشرف على المحيط الذى تصطخب امواجه وتصطدم بأسفل الصخرة على الدوام ، وكانت الحقول الممتدة على الشاطىء قاحلة لا تكاد تمسك على البقرات اليائسات المنتشرة فى ارجائها حياتها ، ولم تكن هذه الجزيرة التى تبعد عن المدينة بنحو خمسة اميال آهلة

www.liilas.com

بالسكان اللهم الا من خمسة اشخاص لا يقيم أودهم سوى قليل من الخضروات التى تنفتح عنها الارض وبعض اللقيمات الجافة التى لا تسمن ولا تغنى من جوع .

استأجرت كوخا وهو عبارة عن غرفتين تكاد جدرانهما تسقط من فرط البلى ، كما كان الباب مخلوعا من الواجهة فأمرت اصحابه باصلاح ما يمكن اصلاحه ثم ابتعت بعض الاثاث فنثرته فى ارجاء المكان حسب ما يقتضيه العمل وطلبت من الفلاحين الا يزعجوا وحدتى بعد ان تصدقت عليهم بقليل من الملبس والمأكل

كان الصباح هو احب اوقات العمل لدى ، اما فى المساء فكنت اتمشى على الشاطىء الصخرى مستمعا الى صوت تلاطم الامواج وهى تتكسر عند قدمى ، كانت حياة تبعث الملل والسأم فى اشد النفوس اصطبارا .. ولكن كان لابد لى من ان اقاسيها حتى اكمل العمل الذى اخذت على نفسى القيام به .

وكنت قد قسمت العمل حال مجيئى الى ذلك المكان ، ولكنى ما كدت اسير طبقا للمنهاج بضعة ايام حتى تملكنى الضجر ، ففى بعض الاحايين كانت تمضى على عدة ايام دون ان تطأ قدمى عتبة المعمل ، وفى البعض الاخر كنت اجهد نفسى بالعمل ليل نهار ، دون ان استريح لحظة واحدة ، وتارة افكر فيما انا قائم به فأتراجع وانتهقر ويعتورنى الفزع والذعر ، وطورا يسدل الحماس غشاء سميكا على عينى فأنا اعمل دون كلل او ملل ، وقد تغيرت تغيرا كبيرا فى تلك المرة اذ رق احساسى وصرت اكثر عصبية من ذى قبل فأصبحت افرق من لا شىء ، وافزع من كل شىء واضحيت لا استريح الا على الهدوء

والسكون المطبق فاذا ما جلست انتابتنى الوساوس والاوهام فأتلفت حولى فى قلق متوقعا ان المسخ سيشق الجدار او سينشق من الارض ليطالبنى بأنثاه التى ينتظرها انتظار المقرور اشعة الشمس .

وكنت فى نفس الوقت اقبل على عملى لا لشىء الا انه بانتهائه ستنتهى معه آلامى واحزانى فأخلع ثوب العبودية التى كادت تقضى على ثم اعود الى وطنى واهلى حرا طليقا .

— ٢٠ —

وحدث فى ذات مساء ان كنت فى معملى فترددت بين الانتظار حتى طلوع النهار التالى وبين الاسراع فى اتمامى هذا العمل الرهيب بأية طريقة .

اتخذت مقعدا وجلست بجانب النافذة المشرفة على البحر وسرعان ما غرقت فى لجة مزبدة من الافكار .

لقد انقضت ثلاثة اعوام منذ ان خلقت ذلك الشىء الممسوخ الذى راح يعبث بقلبى يذيقه من الالام والاحزان فوق ما يحتمل وهانذا الان اصنع مخلوقا آخر ليماونه على شروره وآثامه .. لقد اقسم المسخ انه سوف يهجر مساكن البشر ويلوذ مع انثاه بالاحراش والصحارى النائية ، ولكن اتوافقه الانثى على ذلك فتذعن لرأيه ويسرى عليها قسمه ؟ ! من المحتمل انها سترفض ان تقيد نفسها بقسم فاه به زوجها قبل ان تخلق ، عندئذ سيدب الشقاق بينهما فيكره كل منهما الاخر وقد تنقلب الانثى التى خلقت خصيصا له وتميل الى معاشرة بنى البشر لجمال تكوينهم ولما يمتازون به عن زوجها من مختلف الصفات فتهجره وتبحث عن اليف

www.liilas.com

لها ليس من جنسها ، لا شك وقتئذ ان الغضب سوف يتملكه من جديد فتعود اليه روح التمرد والثورة ويندفع فى التخريب والتدمير لا يبقى ولا يذر ..

وهب انها وافقته ورحلا عن اوروبا واقاما فى مجاهل امريكا الجنوبية فما الذى يحدث بعد ذلك ؟ ! لا شك انهما سوف ينجبان اطفالا لا يتميزون عن ابويهم بشىء وقد يكون على ايديهم فناء الجنس البشرى فى المستقبل .

فهل من صالحى اذن ان اصب هذه اللعنات على الاجيال المقبلة ، لا شك اننى تأثرت بقصة المسخ الى حد بعيد فوعدته بما وعدت دون روية او تفكير ، اما الان فقد انبثقت الحقيقة المروعة فى ذهنى فعرفت الخطر الذى انا مقبل عليه .. وتيقظت الى عظيم الكارثة التى سوف الحقها بالاجيال المقبلة وسمعت بأذن الخيال اللعنات التى سوف تنصب على بعد موتى .. الست انا خالق ذلك البلاء الذى سنعم شروره على العالم اجمع !!

سرت الرعدة فى اطرافى وتحركت فى مقعدى قليلا ولكن ما كدت ارفع بصرى عن الارض حتى رأيت وجه المسخ البشع من خلال زجاج النافذة وتبينت على ضوء القمر الباهت شبه ابتسامة وقحة ترتسم على شفتيه الزرقاوين .

لقد تأثرنى من سويسرا الى اسكوتلانده ليرقبنى اثناء صنع انثاه التى يهيم بها قبل ان تخلق .

صوبت نظرى الى ملامحه فاذا هى تنم عن القسوة والوقاحة الى ابعد حدودها ، وجال بذهنى الوعد الذى قطعته على نفسى فأحسست بنوبة هائلة من الاشمئزاز تجرفنى فانهلت على الجسد الملقى امامى احطمه وامزقه

اربا اربا .

ورآنى المسخ البشع وانا امزق انثاه فانبعثت من فمه صيحة الم داوية ثم انسحب .. غادرت القاعة واوصدت الباب خلفى ، وبخطوات مضطربة دلفت الى الغرفة الثانية ..

ومضت ساعات طويلة قبعت فيها بجانب النافذة احملق الى البحر .. كان كل شىء هادئا الا من زفيف الريح واصوات قوارب الصيد وهى تخترق الماء . وفجأة سمعت صوت تجذيف تقترب من الشاطىء اعقبه صوت يدل على ان شخصا يحاول فتح باب الكوخ فى رفق . وكان الباب باليا مهشما فانفتح بسهولة ، وما كدت اتبين الداخل حتى كدت اصعق .

حاولت ان استنجد بكل ما فى من قوة ، ولكن الالفاظ تعثرت فى فمى وغاص صوتى فى لجة عميقة ورحت احملق بعينى بطل من احداقهما الذعر ويجول فيهما الفزع !!

دخل المخلوق الرهيب ثم اوصد الباب خلفه فى هدوء وتقدم نحوى قائلا فصوت كنزع الميت :

— لقد حطمت العمل الذى بدأت ، فعلام عولت ؟ ! اعزمت على ان تنكث بوعدك بعد ان تحملت ما تحملت من اجلك ؟ ! لقد غادرت سويسرا معك فقطعت شواطىء نهر الراين اسير على قمم الجبال واخترق السهول والوديان ثم قضيت الشهور مختبئا فى غابات انجلترا وفى مجاهل اسكوتلانده وصحاريها .. تحملت البرد والجوع ، لا ينعشنى سوى امل واحد ، ولا يقوى عزمى الا ما سوف انناله .. واخيرا تحطم املى وتدوسه بقدميك ؟

www.liilas.com

فصحت حانقا : اغرب عن وجهى ، فانا فى حل من الوعد الذى قطعت فلن اخلق لك واحدة من جنسك تشاطرك آثامك وخطاياك .

— ايها الخالق .. لقد ابديت لك وجهة نظرى ولكنك بقولك هذا تدل على انك لا تستحق اى اعتبار .. تذكر اننى اقوى منك ، وفى قدرتى ان احطمك واجعلك تلعن اليوم الذى ولدت فيه .. انت خالقى وانت صانعى ولكننى سيدك فعلى الامر وعليك الطاعة العمياء !!

— لن اتاثر بوعيدك وثق ان كل ما تقول يزيدنى رفضا وعنادا فلن اصنع شريكة لك فى الاثم والعدوان .. اذهب .. اذهب الى الشيطان فهذا ما عولت عليه ولتفعل ما تريد ..

ورأى المسخ امارات العزم ترتسم على وجهى فقال :

— هل قضى على كل انسان ان ينعم بزوجته وكل طير باليفه وكل حيوان بأنثاه وقضى على ان اعيش وحيدا محروما .. ايها الرجل قد تكره وقد تحقد ولكن احترس فسوف تقضى المدة الباقية من حياتك فى اسوا ما يقضيها انسان ، ستحرم من كل شىء وهذا عدل ..

قد تتهمنى بالقسوة ونكران الجميل ولكن من ذا الذى يأخذنى بجريرة ويفرق فى لومى وانا مخلوق تعس احاط بى الشقاء من كل ناحية وانتهى بى الى الهاوية التى يضطرب فى اعماقها العدم ؟ !

انك لم تصنعنى لكى تحفظ حياتى على وتربطنى بالوجود ، وانما لاتخذ منك هدى ورجاء اتلمس منك العون فى انهاضى من حفرة الشقاء والاخذ بيدى من تلك الهوة العميقة التى قذفت بى فيها ..

هل تظننى ساتركك تحيا فى سعادة وترف بينما انقلب

فى اتون التعاسة والحرمان ؟ ! فى مقدورك ان تحرر جسدى من مختلف المواطف التى تعتمل فيه اما حب الانتقام فسوف يبقى لانه اصبح لدى الان اخطر من المأكل والمشرب .. قد اموت .. ولكنك ستموت قبلى .. احترس فانا لا اخشى شيئا ولدى من قوتى وجراتى عونا عليك .

— اصمت ايها الشيطان ولا تسمم الجو باقوالك فلن اخضع لك مهما بذلت .

— حسنا .. ساذهب الان ولكن تذكر جيدا اننى ساكون معك فى ليلة زفافك !

فتبعته بنظرى وشيعته قائلا :

— قبل ان توقع على وثيقة موتى ابحث عما اذا كنت سالما ايها الشيطان المخرب !

وبعد لحظات رايته يبتعد عن الكوخ بقاربه ثم يختفى بين اللجج والامواج .

وعاد الصمت ينشر الوبته على المكان ولكن كلماته الرهيبة كانت ما تزال تدوى فى اذنى بمثل قرع النذير !

« ثق اننى ساكون معك فى ليلة زفافك ! » .

يا الهى .. لو مس شعرة من الزابيث لكان فى ذلك هلاكى المحقق .

ومضت الليلة على وانا فى اسوا حال وبزغ فرض الشمس من اطراف المحيط ليعيد الى هدوئى .. اذا كان يسمى هدوءا .. فهو الهدوء الذى يفرق فيه اليائس الى قرارة اليأس ، فتركت البيت قاصدا الى الشاطىء ولكم تمنيت وقتئذ ان تنفصم علاقتى بالعالم لاعيش على هذه الصخرة النائية املى على الطبيعة قسوتى الشاحبة المروعة حتى يقضى الله امرا كان مفعولا .

www.liilas.com

وعندما استيقظت شعرت لاول مرة منذ الامس اننى أمت الى الجنس البشرى ، خرجت استنشق الهواء فى نهم وفى لذة لم اكن احس بها منذ وقت طويل .

وانقضى النهار فاقبل الليل وانا لا ازال فى مكانى حتى رايت احد صيادى السمك مقبلا نحوى وهو يلوح الى بربطة صغيرة سرعان ما قذفها الى .

فتحت الربطة فاذا هى تحتوى على رسائل من جنيف وواحدة من صديقى كلير فال يلح على فيها لاعود اليه قائلا ان السأم دب الى نفسه منذ ان تركته فى برث وهو يرجو ان نعود معا الى وطننا ، وقد اعادت الى هذه الخطابات الحياة فعزمت على مغادرة الجزيرة فى مدى يومين .

ولكن قبل رحيلى يتحتم على ان انجز اعمالا جعلت الرعدة تسرى فى بدنى من جديد اذ ينبغى ان اجمع ادواتى واجهزتى الكيميائية ولذا لا مفر من دخول قاعة المعمل التى كانت مسرحا لذلك العمل المقيت .

وفى فجر اليوم التالى جمعت شمل شجاعتى وفتحت الباب ثم اخذت اجمع اشلاء الجسد الناقص المتناثرة على الارض وما تبقى بغير تحطيم من الاجهزة والالات ، ووجدت انه ليس من الحكمة ان اترك قطع اللحم فى الكوخ فاثير الرعب والشكوك خلفى ، فوضعتها جميعا فى سلة وغمرتها بقطع ثقيلة من الحجارة معتزما القاءها فى الماء ثم جلست على الشاطىء حتى اذا حلت الساعة الثالثة من الصباح التالى نقلت السلة الى قارب شراعى صغير وقبعت الى جانبها ابتعد عن الكوخ .

كان كل ما حولى هادئا هدوء الموت فانتهزت فرصة مرور غيمة كثيفة على وجه القمر ثم القيت بالسلة فى

اعماق البحر وانتظرت حتى غاصت رويدا رويدا ، ثم استلقيت فى القارب بعد ان وجهت الشراع الى المكان المقصود واسلمت عينى للنوم ، لم ادر كم مر من الوقت وانا غائب عن الوعى ، ولكنى ادرى اننى عندما استيقظت كان قرص الشمس عاليا فى كبد السماء وكانت الامواج تصطخب وتتلاطم بجوانب القارب فى شدة . وكانت الرياح شمالية غربية فلابد انها اضطرت القارب الى الابتعاد عن الشاطىء المقصود . فحاولت ان اغير وجهة القارب ولكننى وجدت ان محاولتى ستملأه بالماء فلم اجد مندوحة من الرضوخ لحكم القدر يفعل بى ما شاء .

وبعد ساعات طويلة قضيتها فى رعب قاتل وفى ظمأ محرق وفى انهاك لا حد له رايت ما جعلنى احس بالحياة تدب فى عروقى من جديد فانبثقت دموع الفرح من عينى وغمرنى سرور جارف لا يشعر به الا من راى الموت بعينه ثم نجا منه باحدى المعجزات .

وآية ذلك اننى رايت ارضا عن بعد فاتجهت نحوها مسرعا ، ورغم انها كانت تبدو صخرة الا اننى عندما اقتربت منها وجدت عليها سمات العمران فالقوارب الصغيرة يزدحم بها الشاطىء وكان لوقع تصادمها بعضها ببعض اجمل الاثر فى نفسى .

قفزت الى الساحل ، وبينما انا منهمك فى ربط القارب رايت الناس يلتفون حولى ، والظاهر ان وجودى بينهم فجاة اثار دهشتهم فقد نمت وجوههم عن ذلك . وبدلا من ان يحاولوا مساعدتى راحوا يتهامسون فيما بينهم ويشيرون الى بايديهم مما جعل الشك يساورنى ، ولما سمعتهم يتكلمون بالانجليزية قلت لهم بنفس اللغة :

www.liilas.com

ـ هل استطيع ان اطمع فى كرمكم فتنبئونى عن اسم هذا البلد ؟

فاجاب صوت اجش ابتعث من وسطهم :

ـ ستعرف ذلك بما فيه الكفاية اذ من المحتمل انك جئت الى مكان لا تستطيع المكث فيه ..

ودهشت من هذه اللهجة الخشنة التى لا تبشر بالخير فقلت له :

ـ لم تجاوبنى بهذه الخشونة وليس من عادة الانجليز استقبال الاغراب الا بالتأهيل والترحيب ؟

ـ لا ادرى ما هى عادة الانجليز ولكن الذى ادريه ان الايرلنديين يكرهون الاشرار .

وبينما كان هذا الجدال الغريب يجرى بيننا رأيت الجموع تتكالف على بوجوه عليها مزيج من الدهشة والغضب مما جعل الخوف يتملكنى .

ولم اشأ ان اطيل الموقف فسألت عن اقرب حانة لالوذ بها ولكن احدا لم يجبنى فلم اجد بدا من ان اسير قدما ولكنى ما كدت افعل حتى تعالى الهمس والضجيج واقبل القوم على يحيطون بى احاطة السوار بالمعصم ، وتقدم من بينهم رجل هزيل وضع يده على كتفى قائلا :

ـ تعال معى يا سيدى فيجب ان تدلى ببيان عن نفسك للمستر كروين .

ـ ومن هو مستر كروين ؟ ! ولم ينبغى ان ادلى اليه ببيان عن نفسى ؟ الم ادخل بلدا حرة !

ـ انها حرة يا سيدى ولكن ليس لامثالك فالمستر كروين هو الحاكم وينبغى ان تذكر له حركاتك وسكناتك لمناسبة وقوع جريمة قتل هنا راح ضحيتها شاب فى مقتبل العمر فى الليلة السابقة .

دهشت لهذا الجواب وسرت فى اثر الرجل .. اننى برىء وليس اسهل على من اثبات ذلك .. ورايت من الحكمة ان اجمع شمل نفسى وانفض عن كاهلى ما اشعر به من خوف وفزع قد يثيران الشك والريبة ، كما اعتقدت ان الامر لن يستغرق بضع لحظات ثم يطلق سراحى ..

ـ ٢١ ـ

قدمت الى الحاكم ، وكان رجلا كبير السن ، تبدو الطيبة على وجهه المجعد ، فنظر الى نظرة صارمة ثم طلب شهود الحادث فتقدم نحو ستة أشخاص انتقى منهم الحاكم واحدا وطلب منه ان يدلى بما عنده ، فقال انه كان مع ابنه (دانيل نوجيت) فى الليلة السابقة يقومان بصيد الحيتان . وعندما عادا فى الساعة العاشرة مساء كان الظلام كثيفا لا يكاد الانسان فيه يستبين موقع قدمه ، وحدث ان كان الرجل يتقدم ابنه فاصطدمت قدمه بشىء ممدد على الشاطىء الرملى جعله ينكفىء على وجهه ، وجاء ولده يساعده على النهوض من كبوته مصوبا اليه مصباحه ، واشد ما تملكهما الرعب عندما وجدا امامهما جثة هامدة ، وظنا فى بادىء الامر انها جثة غريق قذفت بها الامواج على الشاطىء ولكنهما عندما فحصاها ادركا ان الملابس غير مبتلة . ولم يضيعا وقتهما فحملا الجثة الى كوخ قريب لامراة عجوز وحاولا ان يعيدا الحياة اليها ولكن دون جدوى .

واتضح اخيرا انها لشاب فى نحو الخامسة والعشرين من عمره ، كما انه مات مخنوقا لوجود بصمات سوداء على عنقه .

www.liilas.com

ولم اكن مهتما بالقصة من اولها ، ولكنى عندما سمعت عن وجود البصمات القاتمة على عنق القتيل ، عرتنى رعدة شديدة وتذكرت لتوى البصمات التى وجدت على عنق اخى الصغير ويليام ، فغامت على عينى غشاوة واحسست بساقى لا تستطيعان حملى ، فاستندت الى ظهر مقعد قريب ، ولا شك ان الحاكم لحظ ما اعترانى لانه راح يتفرس فى وجهى بعينين كعينى الصقر .

ودعى بعدئذ (دانيل توجيت) فاقسم قائلا انه قبل ان يذهب ليعاون اباه على النهوض راى قاربا فيه رجل واحد على مسافة قصيرة من الشاطىء ، ثم ادلى باوصاف للقارب الذى رآه على ضوء النجوم القليلة ، تنطبق — الى حد كبير — على القارب الذى جئت فيه ..

ودعيت امراة تسكن الى جوار الشاطىء فشهدت بانها كانت امام باب كوخها مستنظرة عودة الصيادين عندما رات قاربا فيه رجل واحد وهو يبتعد عن الشاطىء مسرعا ، وكان ذلك قبل العثور على الجثة بساعة واحدة ..

وشهدت امراة اخرى بان الصيادين احضرا الجثة حقا الى كوخها وحاولا انعاشها دون ان يفلحا ، كما شهدت بان الملابس التى كانت عليهما لم تكن مبللة وكذلك الجثة .

وأيد الكثيرون شهادة الصيادين ، وبعد أن سمع مستر كروين شهادة الشهود اراد ان يرينى الجثة ، فتقدمنى ومعه بعض الرجال الى باب موصد فتحه فى هدوء وطلب منى الدخول .

لا استطيع وصف شعورى عندما سقط بصرى على الجسد الممدد امامى .. كان صديقى هنرى كاليرفال هو

الضحية .

ارتميت على الجثة الهامدة وانا اهتف وقد تحيرت الدموع فى مآقى :

— اواه يا هنرى !! هل مسك جنونى انت ايضا فافقدك الحياة ؟! .. لقد حطمت روحين بريئين ، ولا تزال باقى الضحايا فى انتظار مصيرها المؤلم .. ولكن انت ياهنرى .. انت ياصديقى ..

ولم استطع ان اتمم مناجاتى ، اذ سرعان ما نحانى الحاكم عن الجثة المسجاة فى حنان واخرجنى من الغرفة .

وانتابتنى حمى خبيثة الزمتنى الفراش شهرين ، وقد علمت بعد ذلك اننى كنت اهذى قائلا باننى قتلت ويليام وجوستين وكليرفال تارة ، وباننى كنت اهيب بهن حولى لمساعدتى بالقضاء على المسخ تارة اخرى ، واحيانا كنت استنجد طالبا الغوث من الشبح الذى كان يضغط على عنقى باصابعه الفولاذية ليزهق روحى ..

وكان الحاكم من الطيبة بحيث اقام سيدة عجوزا تعنى بى فى مستشفى السجن فكانت تسالنى بين الحين والحين : الا تشعر بتحسن ياسيدى ؟

فاجيبها فى صوت ضعيف : بل اننى اوثر الموت على حياة كلها بؤس وآلام .

— اذا كنت تشير الى قتلك ذلك الرجل فانا اعتقد ان فى الموت راحة لك من المصير الهائل الذى ينتظرك بعد شفائك .. ولكن مالى انا وذلك ، فما جئت الا لامرضك وليس لاسدى النصح لك .

فكان هذا مما يضاعف اشجانى ويزيد آلامى ، وحدث ذات يوم ان كنت جالسا افكر الى جانب النافذة وعيناى نصف مطبقتين عندما دخل على مستر كروين قائلا :

www.liilas.com

ـ اخشى ان يزعجك هذا المكان ، فهل انت فى حاجة الى شىء ؟

ـ اشكرك يا سيدى على عنايتك بى ، ولكنى اعتقد ان الدنيا ليست بالدار التى يطمع فيها الانسان فى الراحة والنعيم ، والحياة التى لا تفتح شفتيها الا لينبعث منها نعيق الفناء والعدم ، الموت خير منها بلا ريب ، فهو الراحة الابدية لمن كان مثلى يعيش على هامش الحياة !

ـ اننى اقدر عواطفك ياسيدى ، وكل ما اتمناه هو ان تبرأ من التهمة التى الصقت بك ، وتخلع عنك ثوب التشاؤم الخلق ، فانما الدنيا آمال اذا لم تتحقق اليوم فستحقق غدا . فكن واثقا من عدل السماء .

ان للرسل معجزات وللمؤمنين معجزات ، ومعجزات الرسل موحاة من السماء لتطهير الارض . ومعجزات البشر موحاة من نفوسهم الملهمة ، والرجل العظيم من استطاع ان ينتج من الشر خيرا ، وان يحرص على بقاء هذه الشعلة التى تتناقلها الانسانية فردا عن فرد وجيلا بعد جيل ، وضاءة ملتهبة حتى الازل !

كان حديث مستر كروين كفيلا بان ينسينى كل شىء فيهدىء من اضطرابى ويشعرنى بالراحة تعود الى قلبى فتغمره من جديد .

ومضى الرجل الكريم يسرد ما حدث بعد اصابتى بالحمى فقال انه جىء اليه بالاوراق التى كانت فى حافظتى فوجد ضمنها خطابا صادرا من ابى فكتب اليه فى جنيف ينبئه بما حدث ، وعندئذ مسحت اساله :

ـ وكيف حال اسرتى ، ومن الضحية التالية منها ؟

فقال مستر كروين فى حنان :

ـ ان اسرتك فى احسن حال ومازال هناك شخص

صديق يتحرق شوقا الى رؤيتك .

وبعد لحظة دخل ابى فارتميت فى احضانه اغمره بالقبلات مخضلة بدموع الفرح وقلت : كيف حال اليزابيث .. وكيف اخى ارنست ؟ !

فهدأنى والدى قائلا انهما فى صحة جيدة ، ثم أردف :

ـ ولكن اى مكان هذا الذى تسكنه يابنى العزيز ؟ انك ما جئت الى هنا الا لتنشد السعادة ، ولكن يبدو لى انك لم توفق ، ثم هناك كليرفال التعس .

وما ان ذكر اسمه حتى ماجت على وجهى شحوبة الالم الدفين واجبته :

ـ اواه يا ابى .. لقد قدر لى ان ارى ماحدث وماسوف يحدث ايضا ، والا لكنت لفظت انفاسى الاخيرة على جثة صديقى المسجاة .

وبعد قليل راى مستر كروين ان من الحكمة ان ينصرف والدى لئلا اصاب بنكسة حادة .

ومضت اسابيع تحدد فيها يوم محاكمتى ، فراح مستر كروين الطيب القلب يجمع الادلة والقرائن التى تنفى التهمة عنى حتى اذا جاء اليوم المشهود خرجت من قاعة المحكمة رافع الرأس نقى الذيل .

واراد ابى ان لا يعجل بعودتنا الى جنيف حتى استرد صحتى ، ولكنى صممت على العودة فى الحال رغم ضعفى الشديد ، مخافة ان يعتدى المسخ على اخى او خطيبتى بالاذى واذعن ابى لارادتى بعد الحاح شديد ، فركبنا سفينة ابحرت بنا من شواطىء ايرلنده الى ميناء الهافر عند منتصف الليل فاستلقيت على سطحها ارصد النجوم واستمع الى خرير المياه ، وانا جد مغتبط لاننى ساعود الى جنيف ، واعيش بين اهلى ووطنى مرة اخرى .

www.liilas.com

منى هذا القول ، ولكنه كان يغير موضوع الحديث محاولا ان يميل بفكرى الى ناحية اخرى .

وبعد ايام قلائل من مغادرتنا باريس فى طريقنا الى سويسرا جاءتنى رسالة من اليزابيث تطلب لى من الله الصحة والعافية وتشكو ما يخالجها من خوف واشفاق من اننى لن اتزوجها الا بناء عن رغبة ابوى ، وبرا بالوعد الذى قطعته على نفسى ، على حين اننى لا احس بالحب نحوها . وهى تسألنى عما اذا كان القدر قد شاء ان اتعرف فى احدى سفرياتى الكثيرة الى فتاة وقعت من نفسى فكلفت بها ؟ .. وهل هذا هو سبب ما يعترينى من وجوم وميل الى الوحدة عندما كنت فى جنيف لاخر مرة ، واذا كان الامر كذلك فهى على استعداد لان تهبنى الحرية فى اختيار الزوجة التى اشاء وحسبها سعادتى التى تتمناها لى بكل ما فى قلبها من حب مضطرم وهوى جارف ، ثم هى اخيرا تتوسل الى ان استجيب الى عواطفى دون اكتراث لرغبات الاخرين .

وعندما قرات هذه الرسالة الرقيقة انبعثت من عينى الدموع ، وعادت كلمات المسخ الرهيبة تدوى فى اذنى من جديد :

« سأكون معك فى ليلة زفافك ! »

ايريد هذا المخلوق التعس ان يخمد امام عينى قبس السعادة الذى اعيش من اجله ؟ . ايريد ان يسلبنى الكنز الذى احرص عليه حرص المبصر على نور عينيه ؟

يا الهى ، اننى افضل الموت آلاف المرات على ان ادع الموت يلمسنى لمسة واحدة . ان تهديده لى بقوله انه سيكون معى ليلة زفاف يدل على انه لم يكتف بعد بالدماء التى اراقها والارواح التى ازهقها ، وكأننى باقبالى على

- ٢٢ -

وعندما بلغنا باريس وجدت ان المسافة التى قطعناها استنزفت قوتى فعولت على قضاء عدة ايام فيها لاستريح قليلا ، ولكن الوجوم الذى كان يرتسم على وجهى كثيرا ما ارهق والدى لانه لم يكن يعلم اصل بلائى ، فقد مضى يبحث عما يخفف من المى ، فاراد ان يقدمنى الى بعض الاصدقاء ولكنى ابيت . فكيف اجرؤ على الانضمام اليهم وانا خصمهم الالد ؟ ! الست عدوا للبشر ؟ .. بل عدو العالم اجمع ؟ !

ودهش والدى ولم يجد سببا معقولا يدعونى الى الرغبة عنهم فقلت :

— اواه يا ابى ! .. انك لا تعرف عنى سوى الثرر اليسير . قيود اليزابيث لتتزوجها ، وهذا ما يقض مضجعك ويجعلك التعسة كانت بريئة من دماء اخى وحكم عليها ظلما ، كما كان يوشك ان يحكم على فى ايرلندا . ورغم ذلك فانا سبب هذا .. وانا قاتلها .. ان ويليام وجوستين وهنرى قتلوا جميعا بيدى لا بيد غيرى .

ويسمعنى ابى اقول ذلك فيظننى اهذى ويشفق على ويهدئنى قائلا :

— يا عزيزى فيكتور عد الى رشدك ، ما هذا الذى تقول ؟ ! اتوسل اليك الا تتهم نفسك هكذا مرة اخرى .

— اننى لست مجنونا يا ابى . لقد قتلت هؤلاء الابرياء ، او بالاحرى قتلوا بوساطتى ، والله يعلم اننى بذلت جهود الجبابرة لاحفظ عليهم الحياة ولكننى لم اوفق ، ولقد كنت على استعداد للتضحية بدمائى قطرة قطرة لكى احول بينهم وبين المصير المفجع الذى انتهوا اليه ولكنى أخفقت .

ولا ادرى كيف كان والدى يظن بى الظنون عندما يسمع

www.liilas.com

الزواج مسرعا انما اتعجل كأس حياتى المريرة !.. لاتزوج اذن ، وليكن ما يكون !!

وأجبت اليزابيث على رسالتها برسالة أخرى اقتطعت كلماتها من روحى وكتبتها بدماء قلبى فقلت فيها : «انزعى هذه الافكار القاتمة من ذهنك ايتها الحبيبة ، فلا زالت لنا بقية من السعادة سنراها ونحس بهـا فى المستقبل القريب ، ولو علمت ايتها المعبودة مقدار حبى لك لما جرؤت على هذا السؤال الغريب ، اذ يعلم الله اننى احبك حبا راسخا لا تنال منه العواصف الهوجاء المدمرة ، ولسوف يمضى ينير لنا الدياجى والظلمات حتى يستقر بنا عند الهناء الذى ننشده » .

فمهما تعسف الدهر فى حرماننا من التلاقى ، ومهمـا طال بقاؤنا تحت الظلال العارية الصماء ، فسنشرب بكأس الحب جرعة فجرعة وسأظفر بك جسدا وروحا على الايام ، وسنتقابل شفاهنا فى قبلات حارة مستدية ، وستطول ضجعتنا تحت النور فى فجرة من عالم الاثم والدموع فانما الحب اله عادل لا يرضى لرسله الاطهار فى الارض حياة كالعدم وعطاء كالحرمان .

وأما الذى كان يرين على قلبى فسر احرص عليـه الان وسوف اميط عنه اللثام بعد زواجنا القريب .. وعندئذ فقط سيدعشك انى لازلت حيافى الارض أرزق !

وبعد ان ارسلت هذا الخطاب بنحو اسبوع وصلنا الى جنيف فتقبلتنى اليزابيث بنفس يعبث بها الظمأ والحنين وبذراعين ممدودتين وصدر قد التهبت انفاسه وقلب زادت خفقاته .. وتعانقنا وتقابلت الشفاه الظمأى على عاطفة رباتة عذبة ويصمت كل شىء من حولنا او يخيل الينـا ان كل شىء مستقر صامت . وفجأة دوى فى الجـو

صوت اجش رهيب لم تسمعه اذنى !!

« تذكر جيدا اننى سأكون معك فى ليلة زفافك !! »

علانى الوجوم وغاص قلبى بين أضلعى وجف حلقى حتى صار كالعصا فراحت اليزابيث تسرى عن نفسى وترفع عن قلبى ما يثقله .

واراد ابى ان يسرع بزواجنا فحدد موعدا قريبا ليربط بين قلبينا وبهنا بسعادتنا المرجوة .

وجاء اليوم المشهود فتألقت الوجوه بضوء سماوى حنون واغترت الشفاه بابتسامات كلها عذوبة ورقة وتناثرت الورود وتساقطت الرياحين فى قاعات البيت وردهاته وكست السعادة اخيرا الدار التى لم تر سوى الاحزان والرزايا !

وكنا قد اتفقنا قبل ذلك على ان نمضى شهر العسل البهيج فى « نيلا لامسترا » وهى دار انيقـة ورثتها اليزابيث عن امها تقع على شاطىء بحيرة كومو فمضينا اليها تحوطنا الوان الازاهير العبقة والورود الفياحة التى تبعث رائحتها فى النفس خامد الامال وميت الاماني .

وكنت قد لزمت جانب الحذر فتسلحت بمسدسين يتفجر الموت من فوهتيهما وخنجر يلمع الفناء على حديه لادافع بها عن نفسى وعن زوجتى اذا ما حدثت نفس المسخ بان يحطم سعادتى ويسلبنى هنائى .

ولما كنا قد عولنا على ان نرحل الى هذه الدار بطريق الماء حيث نقضى الليلة فى مدينة افيان ثم نستانف رحلتنا فى ضوء النهار التالى فقد وصلنا الى هذه المدينة فى الساعة الثامنة مساء فمشينا قليلا على الشاطىء نجلو اعيننا بالمناظر الساحرة . وكانت اليزابيث سعيدة وقتئذ . اما

www.liilas.com

وعندما افقت من غيبوبتى وجدتنى محوطا بسكان الحانة وقد غشيت وجوههم غيمة من الذعر والفرح فقفزت من بينهم وهرولت عائدا الى مخدع اليزابيث.. حبيبتى .. زوجتى .. وكانوا قد غيروا موضعى فاذا برأسى مستندا على ذراعيها ، ووجها وعنقها مغطيان بمنديل كبير . يخيل الى الناظر انها نائمة قد اسلمت نفسها الى الاحلام البهيجة !

وارتميت على جثتها الهامدة ورحت اغمرها بالقبلات المخضلة بالدموع وانا اناجيها احر النجوى .

ولكنها لم تجب . فقد خمدت انفاسها وسكنت حركاتها .. بعد ان ترك المسخ الرهيب علامة قبضته القاتلة على عنقها !!

ورفعت عينى الى النافذة المفتوحة لارى القاتل الاثيم يصوب الى نظراته البشعة الهائلة فاسرعت باخراج المسدس الثانى من جيبى واطلقته على الفور ولكنه زحف كالبرق الخاطف وغاب فى اطواء الظلام .

وخرت ببالى فكرة رهيبة .. اتراه اكتفى بتلك الجريمة ام مضى الى ابى واخى يجهز عليهما ايضا ؟

يا الهى .. وكيف اصل الى جنيف فى مثل هذه الساعة المتاخرة من الليل ؟ !

لم يكن امامى سوى العودة من طريق البحر فاستأجرت قاربا واستأجرت عددا من الرجال للتجديف ، ورحت اجدف معهم وانا لا املك دموعى من التساقط حتى بلغت جنيف اخيرا .

هرعت الى البيت فاذا بابى واخى فى احسن حال.. ودهشا لمقدمى على تلك الصورة ولكنى ما كدت انبأهما بالنبأ الاليم حتى سمعا لهول الخبر وراحا يبكيان فى

انا فكان الشك يساورنى ويعبث بقلبى ما يشاء له العبث فسرعان ما عاد الوجوم يغزو وجهى ، وسرعان ماتضاعف وجيب قلبى فانا اتلفت حولى فى شك واشفاق راضعا يدى على مسدسى متاهبا لاطلاقه ، ورأت اليزابيث حالتى النفسية فسألتنى : ما الذى يزعجك يا عزيزى فيكتور ؟! ومم تخاف ؟ !

فاجبتها محاولا دفع الرعب عن نفسى :

ـ اوه .. لا شىء يا حبيبتى فاطمئنى ولسوف تنقضى هذه الليلة فى هدوء وكذا الليلة التالية .

وتقدم الى فانطلقنا الى حان قريب وطلبت من اليزابيث ان تسبقنى فى الدخول الى مخدعها لتستريح من مشقة السفر فانصاعت لامرى وغادرتنى بينما رحت اقطع الوقت رائحا غاديا فى الممر المتصل بغرفتها وقد ارهفت حواسى مخافة ان ينفذ المسخ وعيده الرهيب .

وفجاه دوت فى الظلام صرخة رهيبة . وكانت صادرة من مخدع اليزابيث . لا ادرى ماذا اصابنى وقتئذ فقد شعرت بقلبى يكف عن النبض وبالدماء تتوقف عن التدفق فى عروقى وبقدمى تسلبان فى الارض كأنما تسمرتا فيها .

وسقط المسدس من يدى ورحت اتلفت حولى كالمجنون.

لم تدم هذه الحالة سوى لحظات خاطفة سمعت بعدها صرخة ثانية فاندفعت الى الغرفة كالسهم .. كانت اليزابيث ملقاة على الفراش وقد غطت بشعرها جزءا من وجهها الشاحب الذى كان يتألق منذ لحظات بالضوء والحياة .

اجل .. ماتت اليزابيث .. واحسست برأسى يغلى وبساقى تتخاذلان فسقطت على الارض مغمى على ..

www.liilas.com

حرارة ولوعة .

لقد كان ابى يأمل ان يسعد البقية الباقية من حياته فاذا بهذا الوحش يحطم آماله التى كان يعيش من اجلها واذا به يصاب بمرض يقعده عن الحركة ثم اذا به يسلم نفسه للموت بعد ايام معدودات .

وبعد نحو شهر توجهت الى قاضى المدينة الجنائى وسردت له قصتى طالبا منه أن يصدقنى فى كل كلمة اقولها لانها اقرب الى الخيال منها الى الحقيقة وتوسلت اليه ان يعمل معى على القضاء على هذا المخلوق .

فقال :

— ليتنى استطيع ياسيدى ان اقدم اية مساعدة ، ولكن قصتك غريبة بل هى اغرب ما سمعت ، فكيف اذن نستطيع ان نطارد مخلوقا له من القوة بقدر ما تصف ، ومن ذا الذى يتمكن من اصطياد حيوان يستطيع فى سهولة عبور بحار الثلج والسكنى فى المغاور والكهوف التى لا يمكن للبشر المجازفة بالوصول اليها ؟ ! والى جانب ذلك ، لقد انقضت شهور على جرائمه فنحن نجهل الآن الاماكن التى يغشاها ..

— اننى واثق ياسيدى الحاكم من انه يسكن على مقربة من بيتى وحتى لو كان يلوذ فى مغاور جبال الالب ففى الامكان اقتناصه كما نقتنص الوحوش ، ولكنى لا اعرف ما يجول فى فكرك ، انك لم تصدق روايتى ولذا فانت لا تعتزم معاقبة الجانى بما يستحق .

— انت مخطىء ياسيدى ، فلو كان فى استطاعتى ان اقبض على هذا الوحش بنفسى لفعلت دون تردد ولانزلت به من الوان العذاب اكثر مما يستحق . ولكنك خلعت عليه اوصافا تجعله بعيدا عن ايدى البشر فلا

تبتأس اذن لتقاعسى ..

— كما ترى ياسيدى ، ولكنى سانتقم منه بنفسى ولو ادى ذلك الى موتى ..

وكنت ارتعد من فرط الغضب وانا اقول ذلك فاخذ الحاكم يهدىء من روعى ويسرى عنى .

— ٢٣ —

كان اول ما عولت عليه بعدئذ هو مغادرة جنيف الى الابد فعمدت الى مقدار كبير من المال وبعض حلى من الجواهر ورثتها عن امى وجمعت كل ما يلزمنى لرحلتى الطويلة ثم انطلقت فى الليل الى حيث ترقد جثث ويليام وزوجى اليزابيث وابى ، وكان كل شىء فى المقابر ساكنا هادئا .

وانحنيت على الحشائش وقبلت الارض التى ضمت اعز ما كنت احرص عليه وبشفتين محترقتين من نار الجوى صحت :

— وحق الارض التى اجثو عليها وارواح الموتى التى تحوم حولى .. وحق الحزن الدامى الذى تغلغل فى فؤادى الكسير والشباب الذى لم اهنأ بعهده البتة لحظة منذ ان خلقت ، وحق الجثث الملحودة فى اطواء الثرى ، لهؤلاء اقسم غير حانث ان احطم المسخ الذى خلقته بيدى ونفخت فيه من روحى وان اوقف ما تبقى من حياتى للقضاء عليه والفتك به ، فامسا ان احيا ويموت ، واما ان اموت وبحيا ..

وما انتهيت من قسمى حتى سمعت ضحكة شيطانية هائلة تدوى فى اذنى دوى الرعد القاصف تبعها صوت اعرفه يقول :

www.liilas.com

ـ لقد اقتنعت الان انك تعتزم الحياة ايها البائس التعس وهذا كل ما ابتغى !

وعلى ضوء القمر الشاحب رحت اعدو خلف ذلك الشيطان المريد ، ومنذ ذلك الحين بدات المطاردة الرهيبة .. المطاردة بين الخالق والمخلوق !

تعقبته على شواطىء النهر ثم على سواحل البحر الابيض المتوسط حيث رايته مصادفة يلوذ بسفينة كان من المنتظر ان تبحر الى البحر الاسود فلذت بها ايضا ولكنه سرعان ما هرب منى ولا ادرى كيف تاتى له ذلك الى الان .

تعقبته من مجاهل «تارتارى» وفى هضاب روسيا مستعينا بارشاد الفلاحين تارة وباثار اقدامه الهائلة تارة اخرى ، واحيانا كان هو نفسه يدلنى على طريقه بان يكتب جملة على الارض تلهب حماسى وتشعل نار الانتقام فى صدرى ، فقد كتب مرة : « ان حكمى لم يزل بعد .. انت تعيش وتخور قواك وانا مازالت قوتى كما هى ، فاتبعنى وسوف اقودك الى البقاع الثلجية فى اقصى الشمال حيث يقتلك البرد وينهك قواك الجوع وانا اتحمل كلنا الحالتين ، اما انت فسوف تفنى سريعا .. تقدم يا عدوى الالد لترى ما ينتظرك من اهوال تشيب لهولها الولدان وتقف لفظاعتها الشعور ! » .

وعندما اقتربنا من الشمال صادفتنا قطعا سميكة من الثلج كانت تغطى الطرق وتعرش اكواخ الفلاحين وتسد ابوابها وتقتل بهائمها ومزروعاتها مما جعل المسخ يبتهج ويزهو بالنصر ويترك لى هذه الكلمات :

« استعد يا الد اعدائى فلقد ابتدا العذاب الذى اعددته لك ولن يحميك حذاؤك من البرد وما جئت به من

طعام من الجوع » .

كنت اجمع شجاعتى بعد قراءة هذه الكلمات القاتلة وازداد رغبة فى الانتقام وكنت قد اتيت بزحافة كبيرة وعدة كلاب لاستعين بها على اختراق الانهار التى تحولت الى مساحات واسعة من الجليد ولم اكن اعلم ان الوحش قد فعل مثلى ولكن بعد يومين مررت ببعض الفلاحين والقيت عليهم بضعة اسئلة فاجابونى بانهم راوا وحشا هائل الحجم يمر بهم فى الليلة الماضية وهو مدجج ببندقية وعدة غدارات وكان يقتحم الاكواخ ويجمع ما فيها من طعام ويضعها على زحافة كبيرة تجرها الكلاب ومضى الى الشمال حيث لا توجد ارض بعد ان بث الرعب فى السكان ونشر الفزع بينهم .

وبالرغم من الاهوال التى كانت تنتظرنى فقد تعقبته بعد ان استرحت قليلا واخذت كفايتى من الطعام والمئونة وبعد يومين قضيتهما فى اسوأ حال رايت المسخ على بعد نحو ميل ، فهممت بان الحق به ولكنه سرعان ما اختفى وراء جبال الثلج القائمة ثم رايت زوبعة هائلة وزلزالا هز الارض من جذورها فشقها وحال بينى وبينه .

واخيرا وجدت نفسى على قطعة عائمة من الثلج فتاكدت من الموت المحتم ومرت الساعات الطويلة وانا على هذه الحال الى ان قيض الله لى سفينتكم فرايتها ولا انكر اننى دهشت لان السفن لا تخاطر بالاتجاه نحو هذا الشمال البعيد .

ما ان وقع نظرى على السفينة حتى حطمت قطعتين من خشب الزحافة فجدفت بهما ووجدت مشقة هائلة فى تحريك قطعة الثلج العائمة على النحو الذى اتعبنى ، كما كنت مصمما على اننى لو وجدتكم قاصدين الى الجنوب

www.liilas.com

فلن اركب معكم ، بل سأستأنف السير الى الشمال لاتمم عزمي بعد ان اتوسل اليكم ان تعطونني قاربا ومجذافين لاطارد بهما عدوي ، ولكنكم كنتم قاصدين الشمال لحسن حظي فانشغلتموني مما كنت فيه من انهـــاك وضعف شديدين .

فاقسم لي يا والتون انك تنبئني بمجرد ان تقع عيناك على المسخ .. اما اذا مت قبل ذلك فعاهدني بان تبحث عنه حتى تجده فتنتقم منه فتستريح روحي في مرقدها الاخير ، ودعني اوصيك .. فهو خائن .. لا تستمع الى حديثه مهما كان معقولا ، بل ادفع بمديته في قلبه دون رحمة او شفقة وتذكر دائما ارواح ضحاياه ويليام وجوستين وكليرفال واليزابيث وابي وروحي انا ايضا .

* * *

والتون يستأنف رسالته الى شقيقته مسز سامبل بانجلترا ٢٦ اغسطس عام ١٧

عزيزتي مرغريت :

لعلك قرأت هذه القصة المفزعة يا مرغريت ، الم تشعري بالذعر يدب في قلبك فتفقدي السيطرة على اعصابك ، كما شعرت انا ؟ لقد كانت هيئة صديقي وهو يرويها غريبة حقا ، فهو تارة يمسك عن الكلام وقد تملكه الم مفاجيء ، فلا يستطيع كبح جماح نفسه ، وتارة يخرج هديئه ممتزجا بالنحيب ، فهو يردد ما فاه به جملة مرات ، ثم يستفيق الى نفسه فيستطرد .. ولكن صوته — بالرغم من ذلك — كان ثاقبا حادا ، واحيانا كنت ارى عينيه الجميلتين المعبرتين تضاءان بنور غريب واحيانا يعتريه الحزن ، فاذا بعينيه تغرقان في الدموع ، فهـو طورا هادىء ساكن ، وطورا يندفع فاذا بالكلام يخـرج

من فيه كالحمم ..

لقد روى قصته الشاحبة المروعة في سهولة وبساطة فلم يحاول المبالغة لانها قصة حقيقية كان بطلها ولازلت احتفظ برزمة الرسائل المتبادلة بين فيليكس وساق ، وكذا رؤيتنا المسخ وهو يسرع بزحافته نحو اقصى الشمال والحال التي روى بها فيكتور فرانكنشتاين قصته ، كل ذلك يدل على وجود هذا المسخ الرهيب ..

انني لا اشك في ذلك رغم ما اشعر به من دهشة واستغراب وقد حاولت ان استخلص منه الطريقة التي امكنه بها خلق هذا الكائن الشاذ فقال :

— انت مجنون يا صديقي ؟ ! او ان فضولك دفعك الى طلب المستحيل ، أتريد أن تنكب العالم بمخلوق آخر يعاون مخلوقي على الاثم والعدوان ؟ كلا ياصديقي .. اطلب السلام للارض وانشر الطمأنينة في الدنيـــا ما وسعك واتخذ من بؤس غيرك وتعاسته عظة وعبرة لك ، فلا تبحث عن المزيد !

وقد علم فرانكنشتاين انني اكتب مذكرات عن تاريخ حياته فسألني أن يطلع عليها ثم أخذ يصحح بعض الحوادث التي جرت بينه وبين المسخ واعادها الي شاكرا وحدث انه بينما كنت استمع الى أغرب قصة سمعتها في حياتي وقد اتجهت افكاري الى طرافتها ان حاولت ان ارغه عنه قائلا ان الحياة مهما اسرفت في نكرها فهي ربح للانسان لا ينبغي ان يفرط فيه فصاح بي : ان الحياة يا صديقي لا فائدة ترجى منها اذا كانت كالقبر تأخذ ولا تعطي .

ولم تكن احاديثنا بعد ان انتهت القصة تتناول تاريخ حياته بل كانت حول مواضيع اخرى متباينة ، فكنت

www.liilas.com

اجد فيه شخصا حاد الذكاء ، سليم المنطق ، ملما بفنون الحديث ، شديد التاثير على سامعه .. يا له من مخلوق رائع .. انه حتى وهو على تلك الحال المحطمة لا يكاد الانسان يتأمله حتى يهفو اليه قلبه . فكيف كانت حاله اذن ايام الرخاء الاولى ؟ !

لكم وددت ان يكون لى صديقا فطالما بحثت عن شخص يبادلنى شعور الصداقة الخالص ويشاطرنى الود والمحبة ، وأخيرا عثرت عليه فى هذه الصحراء الثلجية الشاسعة وهو محطم القلب منكسر الفؤاد ، وكل ما اخشاه هو اننى ما عثرت عليه الا لاعرف قيمته بعد فقده ، وكنت اود ان اصلح من شأنه واعيده الى حالته الاولى ولكنه رفض هذه الفكرة قائلا :

ـ اشكرك يا والتون على ما تحس به نحو مخلوق محطم تعتلج نفسه بالالم ، وتقطعت باليأس ، ولكنك عندما تتحدث عن توثيق عرى صداقة جديدة فثق انها لا يمكن ان تماثل الصداقة القديمة بأى حال ، فهل تجد مهما بحثت ، صديقا اثق فيه ويخلص الى الود مثل كليرفال ؟ وهل تجد امرأة تحاكى فى عواطفها اليزابيث؟

ان صداقة الطفولة يا صاحبى تظل عالقة بالذهن حتى الرمق الاخير ولن تماثلها صداقة أخرى مهما بنيت على اسس قوية ودعائم متينة راسخة ..

لقد قضى على ان اكون وحيدا يا والتون فلن احس بذلك الشعور الجارف الذى كان يضمره لى كليرفال ، ولن استمع ما حييت الى تلك النغمات العذبة الحنونة التى كانت تسكبها اليزابيث فى اذنى .. لن احظى بشىء من ذلك ايها الصديق وحسبى ان يمد الله فى اجلى حتى احطم المسخ الذى صنعته بيدى والذى كان سببا فى

مصائبى واحزانى التى لا حصر لها ولا نهاية .. وبعد ذلك ينتهى الهدف الذى من اجله عشت فأموت مستريحا هادىء البال » .

اخوك : « روبرت والتون »

٢ سبتمبر عام ١٧

« شقيقتى الحبيبة

« اكتب اليك وانا انتظر الموت مع رفاقى فى كل لحظة تمر ويغلب على ظنى اننى لن اراك وراى انجلترا ارض الوطن العزيز مرة اخرى ، فجبال الثلج الشاهقة تحيط بنا من كل جانب وشبح الموت الرهيب يهدد حياتنا بين الفينة والاخرى ، وبحارتى الشجعان يكاد اليأس يتملكهم فهم يروحون ويغدون على سطح السفينة فى وجوم واكتئاب ورغم كل ذلك فان شجاعتى وجراتى لم تفارقانى ، ولكن الذى يقلقنى هو أن مصير هؤلاء الرفاق معلق فى عنقى فلو قدر لهم الموت ، فالسبب انما يرجع الى مشروعاتى الحمقاء ..

وكيف ستكون حالك يا مرغريت ؟ !

سوف لا تدرين بمصيرى المظلم ، بل سوف تأملين عودتى بذراعين مفتوحتين ونفس مشوقة الى رؤيتى .. وسوف تمر السفن الواحدة تلو الاخرى فيعاودك اليأس ويعذبك الامل .. اواه يا اختى المحبوبة .. اننى اخشى فشل لمشروعى اكثر مما اخشى الموت ، ولكنى ارجو من الله ان يعزيك عن فقدى فيحفظ قلبك الصغير من لوعة الاسى ، لا من اجلك فقط ، بل من اجل زوجك المحب واطفالك الاعزاء .

اما ضيفى البائس فهو يحوطنى بحنان كنت اظن اننى

www.liilas.com

حرمت منه الى الابد ، وهو لا يني يبعث الامل فى نفسى ويتحدث عن الحياة الباسمة كأنه يعرف قدرها وهى التى اذاقته من العذاب الوانا ، ثم هو يذكرنى بالمشاق التى تكبدها ابطال التاريخ الشجعان لاكتشافه القارات البعيدة والبقاع النائية ثم عودتهم الى اوطانهم وذويهم يكلل المجد هاماتهم . ولا يكاد البحارة يسمعون ذلك حتى تنتعش نفوسهم وتتألق وجوههم ..

ان له مقدرة غريبة فى التأثير على الناس حتى لقد خيل الينا بعد ان سمعناه ان جبال الثلوج قد ذابت عن آخرها او غاصت فى البحر فلن تعود ، ومع ذلك فاخشى ان تقوم حركة عصيان بين البحارة فى هذه المجاهل ولا ادرى ماذا ستكون النتيجة ؟

« روبرت والتون »

٥ سبتمبر عام ١٧

من المحتمل الا تصلك هذه الرسالة ابدا ومع ذلك فانا اكتبها اليك ، ان جبال الجليد الهائلة لم تزل تحكط بنا ، كما لم تزل تهدد سفينتنا وحياتنا بالسحق الذريع .. وبرودة الطقس تكاد تهرأ اجسامنا وتمزقها شر ممزق .

وفرانكنشتاين تسوء حاله يوما بعد يوم اذ عادت اليه الحمى فالتهبت جسده وانهكت قواه واذا ما قام بحركة بسيطة سقط بعدها فاقد الوعى .

نوهت فى ذيل رسالتى الماضية بخوفى من عصيان البحارة لاوامرى وتمردهم على .. وقد صحت نبوءتى اليوم ، اذ بينما كنت هذا الصباح جاثيا الى جانب صديقى فرانكنشتاين ارقب تقاطيع وجهه وانظر فى شفقه عينيه النصف مطبقتين طرق الباب ثم دخل ستة رجال تتقدم

احدهم الى قائلا انه اختير هو ورفاقه من جميع بحارة السفينة لعرض طلب عادل لا يحق لى رفضه .. وهو انه بما اننا محاصرون بجبال الثلج من كل ناحية ، ومن المحتمل الا يمكن الهرب من ذلك المصير المؤلم الذى قدر لنا ان ننتهى اليه ، اعدهم باننا اذا نجونا بمعجزة فذابت الثلوج وتحسن الجو ان اغير وجهتى على الفور واعود بهم الى الجنوب وكفى ما تكبدوه من اخطار ومشاق .

والواقع ان هذا الطلب افزعنى ، لان اليأس لم يكن قد تملكنى بعد ، كما ان فكرة النكوص على عقبى لم تطرأ على ذهنى لحظة واحدة .

ترددت هنيهة ونظرت الى فرانكنشتاين الذى كان متعلقا باهداب الصمت نوجدته يتحرك فى جلسته ثم يعتدل وقد ومضت عيناه ببريق غريب وتضرج وجهه بلون الدم .

واستدار الى القوم قائلا : ماذا تقصدون ؟! واى شىء تطلبون ؟ ! اتغيرون عزمكم وتنكثون عهدكم بمثل هذه السهولة ؟ أليست رحلة رائعة تلك التى تقدمون عليها ؟! رحلة حافلة بالمجد والنبوغ . رحلة ستسطر اسماءكم فى سجل الخلود على مر القرون والاجيال !

اكنتم تظنونها رحلة هينة ناعمة فتقدمتم اليها لترفهوا عن انفسكم وتجلوا عن قلوبكم ما ران عليها من ملل وسأم ؟ !

انها رحلة رائعة لان فى كل خطوة فيها يفتح قبر ، والموت يظللكم بمنجله حيث تذهبون وحيث تستقرون !!

ان كتاب التاريخ قد علقوا اقلامهم بين انامله ووضعوا

www.liilas.com

صحائفهم بين ايديهم منتظرين ما سوف تملون عليهم من حسنات او سيئات فاملوا عليهم من اعمالكم ما يترك فى نفوسهم مثل ذلك الاثر الذى تركته فى نفوسكم تلك الصحائف البيضاء التى سجلها التاريخ لاولئك الابطال العظام ..

احفروا باظفاركم قبوركم لتحيا ذكراكم وتسطروا اسماءكم فى الاذهان بحروف من نور ، أما اذا قدر لكم العودة الى اوطانكم وامهاتكم واحبائكم فستعودون تتوج رؤوسكم اكاليل الفخر والخلود ..

انه المجد الذى تسعون من اجله ، والشرف الذى تجرون وراءه فلا تنكصوا على اعقابكم قبل نيله والاستئثار به ، والا فلستم بالرجال الذين وهبهم الله القوة على احتمال الشدائد واقتحام مكامن الاخطار .

ايها الجبناء .. موت الجبان فى حياته ، وحياة الشجاع فى موته .. فتقدموا واثبتوا شجاعتكم ، وكونوا رجالا ، لا يحولكم عن عزمكم شيء ولا تثن همتكم عقبة مهما اشتدت ومهما صعب تخطيها ، كونوا صخرا لا يمكن زحزحته او قلقلته ، ولا تفكروا فى العودة الى ذويكم مطرقى الرؤوس ، مكتئبى النفوس يضطرب العار فى اعينكم كما تضطرب الجيفة فى مستنقع ماء اسن ، بل عودوا اليهم كابطال حاربوا فانتصروا ، وكافحوا فظفروا ، وطلبوا الحياة فانتزعوها من بين فكى الموت !» .

وكانت كل كلمة تخرج من فمه مليئة بالقوة والحيوية ، كما كانت كل نظرة يصوبها من عينيه كافية لان تصدع جبلا راسيا ، مما جعل البحارة الستة ينظرون الى بعضهم دون أن يجسر أحدهم على الاجابة بحرف واحد ..

اما انا فقد استدرت اليهم طالبا منهم ان يعودوا الى اماكنهم مفكرين فيما سمعوا واثقين من اننى لا ارفض طلبهم اذا لم تعد اليهم الشجاعة التى تحفزهم الى استئناف الرحلة .

وخرج القوم مذعنين ، بينما التفت الى صديقى لاجده مستلقيا بجسمه وقد نضح العرق على وجهه ونال منه الجهد كل منال .

٧ سبتمبر عام ١٧

لا زال الخرط يحف بنا ، وقد اعتزمت العودة نزولا على رغبة رفاقى الذين قذفت بهم الى غمار تلك البقاع النائية دون ان استطيع دفع الشر عنهم .. هذا اذا هبطت معجزة من السماء فنجونا من الموت الذريع ..

سأعود بقلب مثقل بالهموم لان آمالى قد انهارت فرسبت فى القاع ولن يتم المشروع الهائل الذى اوقفت عليه حياتى منذ نعومة اظفارى .

١٢ سبتمبر عام ١٧

حدثت المعجزة ونجونا ، وهانذا عائد الان الى انجلترا بعد ان فقدت آمالى فى المجد وفقدت صديقى ايضا ، وسوف اسرد الظروف المريرة التى احاطت بموته ..

بدأت كتل الثلوج الكبيرة تتحرك من اليوم التاسع من سبتمبر ، وكان لتحركها صوت الرعد القاصف ، واقترب منا الخطر اذ خشينا أن ينهار أحد تلك الجبال الشاهقة فيهوى على السفينة ويحطمها ولولا عناية الله لسحقنا جميعا ..

وكنت اذ ذاك على السطح ابذل ما فى وسعى لدرء

www.lilas.com

الشر ، بينما اخذ الربان اذ ذاك يعنى بضيفنا التعس الذى ازدادت عليه وطأة المرض الى حد بعيد ، وفى اليوم الحادى عشر من سبتمبر انشقت الكتلة الهائلة ، وافسحت لسفينتنا طريقا نحو الجنوب ، فما ان راى البحارة ذلك وثقوا من قرب عودتهم الى اوطانهم حتى راحوا يهتفون بانا شيد الفرح والسرور .

وفتح فرانكشتاين عينيه وغمغم مستغربا فاجبته:

ـ انهم فرحون لانهم سيعودون الى انجلترا .

ـ وهل سيعودون حقا ؟ !

ـ اجل بكل اسف ، وليس فى مقدورى رفض رغبتهم والاستمرار فى تلك الرحلة المحفوفة بالمخاطر ..

ـ افعل كما تشاء .. اما انا فسوف اظل هنا ، فى استطاعتك ان تعدل عما صممت عليه ، اما انا فلا ، وبالرغم من ضعفى فسوف يشعل حب الانتقام همتى ويعيد الى قوتى ..

قال ذلك ثم حاول القيام من فراشه ، ولكن قواه ما لبثت ان خارت فسقط ثانية وقد عاوده الاغماء .

ومضى وقت طويل قبل ان يعود الى وعيه حتى لظننت انه لن يعود ابدا ، واخيرا فتح عينيه وراح صدره يعلو وينخفض فى تتاقل ورطب شفتيه الجافتين ، ثم حاول الكلام ولكنه لم يستطع .

وجاء احد البحارة وكان يلم بالطب فسكب فى فمه قطرة من شراب منعش ثم طلب منا ان نخلى غرفته ولا نزعجه ، ثم همس فى اذنى قائلا ان صديقى سوف لا يعيش اكثر من ساعات قلائل ..

هالنى الخبر وعدت الى غرفة المريض وجلست الى جانب فراشه ، كانت عيناه مغلقتين ، فظننته نائما ، ولكنه حرك شفتيه فانبعث من بينهما صوت خافت ضعيف يدعونى فاقتربت منه والدموع تنبثق من عينى وسمعته يقول :

ـ واسفاه !! لقد خانتنى القوة التى كنت اعتمد عليها .. اننى احس بدبيب الفناء يغشى جسدى .. نعم سأموت انا ، ويعيش المسخ الذى صنعته بيدى يبتهج بموتى .. والتون .. لا تظن اننى لا استحق العذاب الذى عانيته فى حياتى .. بل اننى استحق اضعافه آلاف المرات .. لقد كنت استعرض ادوار حياتى فى ذهنى كلما خلوت الى نفسى فى الايام الاخيرة فخرجت منها بنتيجة واحدة .. ان المسخ لا لوم عليه ولا تثريب ! بل اللوم كله يقع على كاهلى وحدى .. ففى نوبة جنون حاد نازعت الله جلت قدرته فى القدرة التى ينفرد بها دون الناس اجمعين وخلقت حيوانا حيا ، وكان ينبغى ان امهد له سبل السعادة والرفاهية .. كان هذا واجبى ، واجب الخالق نحو المخلوق ، ولكن هناك واجب آخر دفعنى الى اهمال الواجب الاول .. وهذا اهم واكثر خطرا ..

واجبى حيال الجنس البشرى الذى انحدرت منه والذى اليه أمت .. ولقد اصبت عندما نكثت بوعدى الذى قطعته على نفسى بخلق انثى للمسخ الاول ، وكان جزائى منه ، ان اباد اصدقائى الواحد تلو الاخر .. وهذا جزاء حق !

انه منكود هو ايضا ، وسيحيا وحيدا شريدا ينظر بعين الغيرة والحسد الى سعادة لن يراها والى رفاهية

www.liilas.com

لن تظلله بجناحيها الى الابد ، فخير له والحال تلك ان يموت ، وقد حاولت ان اقوم بتلك المهمة بنفسي ولكني فشلت فتوسلت اليك ان تتمم ما قمت به وتوقف حياتك على اغتك بهذا المخلوق العاق اذا ما اردت للانسانية الطمانينة والسلام .

اما وقد غيرت عزمك الان وفي نيتك العودة الى انجلترا فلا تزال لديك فرصة لمقابلته وعندئذ افعل به ما تراه صوابا ولا تعول على كلماتي التي اتفوه بها والموت يحوم حولي ، ولكن ثق اننى قضيت هذه المدة الطويلة في مطاردته وتعقبه وعانيت ما عانيت لاخلص البشرية من نكباته ولانتقم لهؤلاء الذين لحدوا في اطواء الثرى ولا زالت اطيافهم تتراءى لي ، بل وسوف الحق بهم بعد لحظات !

وداعا يا والتون . ودعني ازجي اليك نصيحتي الاخيرة .. انشد السعادة في الهدوء والحياة الطبيعية الخالية من التكلف والاصطناع .. وتجنب الطموح وحب المجد والفخار فوراء ذلك الحزن الاليم والعذاب المقيم .

واخذ صوته يخفت رويدا رويدا حتى صمت وساد السكون نحو نصف ساعة حاول بعدها ان يتكلم فعقل لسانه ولم يستطع نطقا فامسك بيدي وضغط عليها بكل ما تبقى من قوته ثم اغلق عينيه الى الابد ، بينما هبت نسمة هادئة رقيقة على شفتيه كانما يودع بها الحياة !

مرغريت .. مهما قلت فلن استطيع وصف الحزن الذي ران على قلبي بفقده ، فالدموع تفيض من عيني دون أن أملك نفسي عن سكبها ، وعقلي قد غشيته سحابة كثيفة من الالم القاتل .. لقد كان عزيزا علي ..

بل اعز من اخي .

وعاندا افقده سريعا فكانما فقدت روحي .. انني في طريقي الان الى انجلترا فقد اجد فيها العزاء !

لقد حل منتصف الليل .. ما هذا الصوت الذي اسمعه ؟ قد يكون صوت النسيم البارد وهو ينصفق على زجاج نوافذ السفينة .. ان عقربي الساعة الموضوعة على المدفأة لا تتحركان .. للمرة الثانية اسمع شيئا .. لقد تبينته .. انه صوت رجل ولكنه اجش ، وينبعث من الغرفة التي كرنا فيها جثة فرانكنشتاين المنكود .. يجب ان اذهب لارى ما هناك .. اتمنى لك ليلة سعيدة يا اختي العزيزة .

يا لهول المنظر الذي وقعت عليه عيناي في غرفة فرانكنشتاين ، انني لازلت غير مصدق لما رأيته ، ولا ادري هل لدي القوة لاصفه لك ام ستخونني شجاعتي ، فالزم جانب الصمت !

ومع ذلك فلا تنتهي قصة فرانكنشتاين ما لم اسرد ما رأيته عليك وبذا ينسدل الستار على هذه المأساة المروعة .

دلفت الى الغرفة التي ترقد فيها جثة صديقي التعس فراعني ان اجد رجلا منحنيا عليه .. رجلا غريبا لن تسعفني الكلمات لكي اصفه ، فهو هائل الجسم .. هائل التكوين لم تقع عيني على شبيه له .

كان منحنيا على جثة فرانكنشتاين ، وقد اختفى وجهه تحت خصلات مجعدة من الشعر الحالك وظهرت ذراعه الضخمة الصفراء كانها ذراع مومياء بعثت من القبر .

وعندما احس بدخولي امسك عن تحيبه وقفز الى

www.liilas.com

جانب النافورة فرأيت اذ ذاك وجهه ، لم يقع نظرى قط على مثل هذه السحنة الشاحبة التى تبعث النفور والكراهية ، فاغمضت عينى بحركة غير ارادية ورحت استجمع فى ذهنى ما قاله صديقى الراحل عن مخلوقه المقيت .. وعما يجب على اتخاذه نحوه .. ثم فتحت عينى وامرته بالبقاء .

وقف ذلك الكائن الممسوخ بقامته المديدة وهيكله الضخم وراح ينظر الى فى دهشة ثم اتجه نحو جثة خالقه المسجاة ، وبدا لى انه نسى وجودى ، فظهرت عليه سمات الغضب وقال : هذا ايضا ضحيتى .. اواه يا فرانكنشتاين ! كيف لى بطلب العفو والمغفرة منك بعد كل الذى فعلت .. لقد احرقت قلبك بقتل اولئك الذين كنت تحبهم .. والسناه .. ان صدرك قد خمدت انفاسه ، وشاعت برودة الموت فى جسمك ، وتوقف لسانك عن الحركة فلن يجيبنى .

وكان صوته مختنقا مكتوما ، مما جعل ارادتى فى الاذعان الى وصية الميت التى ادلى بها قبل رحيله تستحيل الى شعور بالدهشة والغرابة ، فها هو ذا المسخ الرهيب يستغفره ويتوب اليه ..

تقدمت منه وحاولت الكلام ، ولكن الكلمات ماتت على شفتى ، وأخذ المسخ يعتب على نفسه ويلومها اشد اللوم ، بينما يناجى جثة خالقه باحر المناجاة وعندما تمكنت من الكلام قلت :

— ان لومك الان لا يجدى فتيلا ، ولو كنت قد اصغيت الى صوت الضمير لكان فرانكنشتاين لا يزال حيا .

فأجابنى المسخ :

— وهل تعتقد انه نال ما يستحق ؟ ! انه لم يتألم عشر الامى ، لقد وهب لى قلبا يشعر ويحس ، فهل اتم عمله فخلق انثاى ؟ ! انه لم يفعل ، بل تركنى اتلظى بالنيران تلذعنى من كل جانب ؟ .. لقد طغى على صوت ضميرى فأخمده ولم اجد سوى الانتقام يشفى غليلى ويخفف قليلا مما اعانيه .

عندما قتلت كلير فال عدت الى سويسرا بقلب دام وفؤاد مجروح .. احسست بالشفقة على فرانكنشتاين ولكن ما لبثت الشفقة ان استحالت الى رعب ، فكرهت نفسى ، ولكن عندما وجدت ان الذى وهبنى الحياة يعتزم ان يتزوج بهن يحب لتحوطه بالسعادة التى حرمت منها نهشت عقارب الغيرة قلبى فدفعتنى الى الانتقام .. كنت اعلم اننى بذلك اهيىء لنفسى عذابا مقيما ، ولكننى كنت العبد ولم اكن المولى .. كنت العبد المتمرد الثائر الذى طغت عليه الانانية واعمت عينيه حب النفس فاختطفتها منه فى ليلة زفافه وبذا حرمته منها الى الابد كما حرمنى من انثاى الى الابد ! واخيرا ها هو ذا خالقى يرقد جثة هامدة وبذا اكون قد اتممت انتقامى ..

— أيها المسخ .. انك ما جئت الان الا لترى بعينيك المصير المؤلم الذى انتهى اليه مولاك .. ما جئت تنوح او تستغفره كما تزعم وانما دفعتك روحك الشريرة الى ذلك ، ولو كان فرانكنشتاين على قيد الحياة لاجهزت عليه بلا شفقة او رحمة فتبا لك من نذل جحود !

فاضطرب المخلوق الممسوخ وصاح :

— كلا .. كلا .. فما دفعك الى هذا القول سوى

www.liilas.com

الجرائم التى اقترفتهـا .. اننى لم اكن كذلك فى اول الامر ، بل كنت محبا للخير ، انفر من الاقـدام على الشر ، كنت نصيرا للفضيلة عدوا للرذيلة ، وبذلت كل ما فى وسعى لاكون كذلك ولكن البؤس ابى الا يحيط بى ويقذف بنفسى الى حمأة الجرائم . وكلما القى نظرة الى ما اقترفت تملكنى الرعب وانكرت ان اكون هذا المخلوق الذى لم يكن يعمـر قلبه فى بادىء الامر الا الخـير .. وهيهنى لم اتغير ولم اجنح الى الشر .. فما عسـاى كنت افعل ؟ لا شىء .. كنت سأظل كما انا عدو الله وعدو الناس وعدو الانسانية .

انك تدعو فرانكشتاين صديقك ، ويبدو لى انك تعلم كل جريمة اقترفتها كما رواها لك .. ولكنه تخطى اشياء كثـيرة عنى فلم يذكرها لك .. انه لم يطلعك على ما قاسيته من تعاسة وحرمان طوال الشـهور المضنية الماضية ولم يطلعك على ما كان يعتمل بين جوانحى من مختلف العواطف من بأس ومن غيرة ومن حسد وغيظ وحنق وغيرها مما يكفى لقتل عشرة رجال ، ومن اجل ذلك حطمت آماله كما حطـم آمالى ، من اجـل ذلك قبضت عنه السعادة كما قبضها عنى .. الم اكن عادلا اذن ؟ لم لا تمقت فرانكشتاين لانه اقدم على عمل لم يتمه ، فانشـانى فى الوجود وتركنى الى العواصـف والاعاصير تنال منى كما تشاء ؟ ..

لم لا تمقت فيليكس لاننى حاولت ان ارتشف السعادة من كئوسهم فأباها على وانتزعنى من تحت اقدام ابيه .

ثم انهال على بالعصا يوسعنى ضربا وتقتيلا ..

هل اذنبت حتى اكافأ بمثل هذه المعاملة ؟ اليس هـذا

ظلما صارخا ؟ !

لا تظن اننى سوف اقدم على جريمة اخرى ، فقد اوشك عملى على الانتهاء ، وسوف اغادر سفينتك على زحافتى التى جاءت بى الى هنا وسوف اتجه الى الشمال .. الشمال البعيد حيث يحملنا القدر وديعة مسـجاة للغيب وحيث لا اسمع سوى تناوح الغثـاء ونشيج العدم .

لن تقع عيناى بعد الان على السماء وما فيها من شمس ونجوم ، ولن اشعر بعد الان بهبات النسـائم وهى تصافح خدى ، او استمع الى اغاريد الطيور التى كانت فيما مضى عزائى وتسلية روحى .

الوداع ، وسـوف تكون آخر مخلوق بشرى تراه عيناى .. الوداع يا فرانكشـتاين ولو كنت حيا الان وعلمت ما بى ووددت الانتقام الرهيب منى لحلت بينى وبين الموت ففيه سأجد ما لم اجد فى الحياة وثق اننى اعانى من تأنيب الضمير ما لا استطيع ان اصف ولكنى سأتخلص من ذلك بعد لحظات .. بل الان سـأموت لاتحلل من بؤسى وتعاستى واتخلص من هـذه الدنيا الموجودة ، التى انسحقت فيها احلامى وشجت آمالى .

الوداع .. الوداع ..

www.liilas.com

قال المسخ ذلك ثم قفز من نافذة الغرفة الى زحافته التى كانت الى جانب السفينة ثم مضى الى الشمال ولم يلبث ان توارى خلف جبال الثلج الهائلة ..

تمت

استدراك

قام بترجمة هذه الرواية (فرنكنشتاين) الاستاذ صادق راشد ، وقد وضع اسم عمر عبد العزيز امين بالصفحة الأولى سهوا فلزم التنويه .

روايات الجيب

خير ما أنتجته قرائح كتاب القصة فى الشرق والغرب

رواية العدد القادم

هى

أو

عائشة

للكاتب الإنجليزى

سير هـ . رايدر هجارد

ترجمة : شفيق أسعد فريد

احجز نسختك مع الباعة

العدد ٢٧ (مجموعة جديدة) ٥٠ مليما

روايات الجيب : مجلة قصصية تصدر يوم السبت من كل أسبوع

تأسست سنة ١٩٣٦

رئيس التحرير المسئول : عمر عبد العزيز أمين